البريد في الأدب العربي حتى نهاية الدولة العباسية
دراسة تحليلية

د. عبد الرحمن يوسف إبراهيم (★)

المقدمة

الحمد لله ذي العرش المجيد الفعّال لما يريد، وأصلي وأسلم على رسوله الذي بَرَّد البريد لنشر دعوة التوحيد، محمد بن عبد الله الذي أرسله بشيراً ونذيراً إلى كافة العبيد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الوعيد، وبعد:

فإن من رحمة الله على خلقه أن جعل سمة التواصل قائمة بينهم إلى يوم القيامة، في جميع جوانب الحياة، نظراً لأهميته في مختلف الميادين العلمية والاقتصادية والسياسية والعسكرية...، الأمر الذي جعلهم يبتدعون لهذا التواصل أشكالاً وأنواعاً، كان من بينها البريد، الذي ظل بدوره نوعاً من أنواع التواصل يتطور من عصر إلى عصر حتى أصبح في عصرنا الحالي من حيث الدقة والسرعة أمراً يفوق الخيال مقارنة بما كان عليه في بداياته.

وكل مراحل هذا التطور قد أنتجت أدبا ثراً، يضاف إلى تراث هذه الأمة، كان من أهمه توثيق هذا الجانب المهم من الحضارة العربية والإسلامية، وتبين ما قام به البريد من دور بارز في نشر الإسلام والثقافة العربية والفتوحات الإسلامية الهائلة، وقمع الثورات التي قامت ضد الدولة الإسلامية، والاهتمام الكبير بأصحاب الخبر من جانب الخلفاء والأمراء، وذلك بجعلهم في منزلة تفوق منزلة الوزراء والولاة، وخوف الناس من البريد وأصحابه، وذلك بسبب الجاسوسية التي استخدمت كوسيلة لمعرفة كافة الأخبار، والانتشار الواسع لمراكز البريد وطرقه في أنحاء الدولة، والأنواع المتعددة التي استحدثت

(★) أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية بالجامعة – قسم النحو والصرف .

لنقل البريد.

هذه وغيرها من الأهداف التي جعلتني أكتب في هذا الموضوع الذي تناثرت معلوماته في بطون الكتب الكبير ولم تجد من يخرجها وينظمها ردحاً من الزمان، وهذه محاولة مني لإبراز جزء يسير من هذه الحضارة متمثلاً في البريد في الفترة من الجاهلية حتى نهاية الدولة العباسية.

الفصل الأول

التعريف بالبريد

المبحث الأول: البريد لغة

تطلق كلمة بريد ويراد بها عدة معان منها:

أولا: المسافة بين المنزلتين، أو السكتين، قال ابن الأَعرابي[1] كل ما بين المنزلتين فهو بَرِيد، وهي مسافة معلومة مقدرة، قد اختُلف في مقدارها على مذهبين: الأول أربعة فراسخ، والثاني فرسخين. والفرسخ ثلاثة أميال، وقد ذكر الحموي[2] هذا الخلاف، وعزا الأول لأهل البادية، والآخر لأهل الشام وخراسان.

وقد فصل العرب في وحدات البريد تفصيلاً دقيقاً، فقد ذكر العمري[3] والقلقشندي[4] أن البريد أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلف ذراع بالهاشمي، وهي أربع وعشرون إصبعا، واختلفا في وحدات الإصبع، فهي عند القلقشندي ست شعرات معترضات ظهر إحدها لبطن الأخرى، والشعيرة سبع شعيرات معترضات

(1) لسان العرب:محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري. دار صادر، بيروت، ط١، د. ت. 3/ 86(برد).

(2) معجم البلدان: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي؛ دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥. ص ٣٣.

(3) التعريف بالمصطلح الشريف: القاضي شهاب الدين بن العمري. مطبعة العاصمة، حوش الشرقاوي، مصر، ١٣١٢هـ، ص ١٨٤.

(4) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: القلقشندي أحمد بن علي الفزاري. تحقيق: عبد القادر زكار، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨١م. ١٤/ ٤١٢.

من ذنب بغل أو برذون، أما العمري فقد جعل الإصبع أربع شعرات، و الشعيرة أربع شعيرات من ذنب بغل، فهذا هو البريد المعمول به.

وقد كانت هذه الوحدات حاضرة في الشعر، بهذا التفصيل، فقد نظمها بعضهم في هذه الأبيات الآتية[1]:

إنَّ الْبَرِيدَ مِنْ الْفَرَاسِخِ أَرْبَعٌ وَلِفَرْسَخٍ فَثَلَاثُ أَمْيَالٍ ضَعُوا
وَالْمِيلُ أَلْفٌ أَيْ مِنْ الْبَاعَاتِ قُلْ وَالْبَاعُ أَرْبَعُ أَذْرُعٍ فَتَتَبَّعُوا
ثُمَّ الذِّرَاعُ مِنْ الْأَصَابِعِ أَرْبَعٌ مِنْ بَعْدِهَا عِشْرُونَ ثُمَّ الْأُصْبُعُ
سِتُّ شُعَيْرَاتٍ فَظَهْرُ شُعَيْرَةٍ مِنْهَا إلَى بَطْنٍ لِأُخْرَى تُوضَعُ
ثُمَّ الشَّعِيرَةُ سِتُّ شَعَرَاتٍ فَقُلْ مِنْ شَعْرِ بَغْلٍ لَيْسَ فِيهَا مِدْفَعُ

والأبيات موافقة لما ذكره القلقشندي تمامًا.

وفي كتب الفقه لا يجوز القصر في السفر في أقل من أربعة بُرد أي: في ستة عشر فرسخاً، أو ثمان وسبعين ميلاً بالهاشمي، وهذا ما رُوي عن ابن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم[2].

إذاً البريد يعني المسافة المعلومة، وجعل بعضهم هذا المعنى أصلاً لمعنى الكلمة.

ثانياً: والبَريدُ: الرسولُ المُبْرَد على دَوابِّ البريد، وإبرادُه وإرسالُه، قال الراجز: (رأيتُ للموت رَسُولاً مُبرَدا[3]، ويُروى عن النبيِّ ﷺ أنه قال: (إذَا أَبْرَدْتُم إلَيَّ بَرِيداً فاجْعَلُوهُ

(1) شرح فتح القدير: كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، دار الفكر، بيروت، ط٢ د.ت، ١/ ١٢٣.

(2) الجامع الصحيح: البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير اليمامة بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م. ١/ ٣٦٨.

(3) تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري. تحقيق: محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م. ١٤/ ٧٥.

حَسَنَ الوَجْهِ حَسَنَ الاسْمِ)[1] ، وفي الحديث أيضا: (إِنِّي لا أَخِيسُ بِالْعَهْـدِ ، وَلا أَحْـبِسُ الْبُرُدَ)[2] أي لا أحبسُ الرسلَ الواردين علي، وقال الزمخشريُ[3]: البُرْدُ سَـاكناً جمـعٌ وهـو الرسولُ، وقال بَعْضُ العربِ: (الْحُمَّى بَرِيدُ الْمَوْتِ، أراد أنها رَسُولُ الموتِ تُنْذِربه)[4].

ثالثاً: وقيل لدابَّة البريد: بَريدٌ لسَيْرِهِ في البَريد، وقال الشاعر:

إِنِّي أنُصُّ العِيسَ حَتَّـــى كأَنَّنِي عَلِيْهَا بِأَجْوازِ الفَلاة بَـــــريدُ[5]

وقال غيرُه: البريـد البغلـة المرَتَّبـة في الرِّبـاط، تعريـب بريـده دم أي مقـصوص الذنب، ثم سمي به الرسول المحمول عليها، ثم سميت به المسافة[6].

رابعاً: ويقولون لطائر الفرانق: البريد، قال ابن منظور:[7] والفرانق البريـد، وهـو الـذي ينذر قدام الأسد، وقال ابن دريد[8]: فرانق البريد سبع يصيح بين يدي الأسد كأنـه ينـذر الناس به، ويقال إنه شبيه بابن آوى يقال له: فرانق قال امرؤ القيس:

وإِنِّي أَذِينٌ إِنْ رَجَعْتُ مُمَلَّكاً بِسَيْرٍ تَرَى فِيْهِ الفُرانِقَ أَزْوَرَا

خامساً: وأطلق على الرسائل نفسها.

---

(1) مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي. دار الريان للتراث، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت. ١٤٠٧هـ ٤٧/٨.

(2) صحيح ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م. ٢٣٣/١١.

(3) شرح القاموس المسمى تاج العروس ، محب الدين أبو فيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي، دار الفكر، د.ت.٢٩٨/٢

(4) كتاب العين: الخليل بن أحمد، تحقيق: مهدي المخزومي ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام- العراق. ٢٩٢٩/٨؛ وتهذيب اللغة ٧٥/١٤.

(5) كتاب العين ٢٩/٨؛ وتهذيب اللغة ٧٥/١٤.

(6) مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر. تحقيق محمود خاطر. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م. ١٩/١.

(7) لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري. دار صادر، بيروت، ط١، د ت. ٣٠٧/١٠(برد).

(8) جمهرة اللغة: ابن دريد. تحقيق منير بعلبكي، دار الملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م. ١٢٠٨/٢(برد)؛ وتهذيب اللغة: ٣١٠/٩(برد).

المطلب الثالث: أصل البريد

اختلف العلماء في أصل البريد، فقيل إنَّه عربي، وإلى هذا ذهب الخليل،(١) أي أنَّه مشتق من بَرَدتُ الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه، وقيل من أبردته إذا أرسلته، وقيل من بَرَد إذا ثبت لأنَّه يأتي بما تستقر عليه الأخبار يقال: (اليوم يوم بارد سمومه)(٢) ،أي ثابت.

وذهب آخرون إلى أنَّه فارسي معرَّب، قال أبو السعادات ابن الأثير(٣) وأصله بالفارسية (بريده دم)، ومعناها مقصوص الذنب، وذلك أن ملوك الفرس كانت عادتهم أنهم إذا أقاموا بغلاً في البريد قصوا ذنبه، ليكون ذلك علامة لكونه من بغال البريد، وأنشد الجوهري لامرئ القيس:

عَلَى كُلِّ مَقْصُوص الذُّنَابَى مُعَاوِدٍ بَرِيدَ السُّرَى بِاللِيْل مِنْ خَيْل بَرْبَرَا (٤)

وبهذا قال الزمخشري(٥).

وقيل إنها استعيرت من الكلمة اللاتينية (Verdus) (٦) ومعناها (دابة البريد)، أو (حصان البريد)، أو (ناقل البريد)، ثم أصبحت تدل على النظام نفسه.

المطلب الثاني: البريد اصطلاحاً

لم يحظَ البريد كنظام بتعريف اصطلاحي، لا عند المتقدمين، ولا المتأخرين مع

---

(1) صبح الأعشى ١٤/ ٤١٢.

(2) البيت لعمر بن ربيعة المخزومي وعجزه: من جزع فلا ألومه. مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، د.ت. ١/ ١٠٥؛ ١/١٩٧.

(3) تاج العروس ٢/٢٩٧.

(4) جمهرة اللغة ٢٩٥؛ و لسان العرب٨٦ (برد).

(5) صبح الأعشى ١٤/٤١٢.

(6) دائرة المعارف الإسلامية. نقلها إلى العربية: محمد ثابت الفندي وآخرون. راجعها من قبل وزارة المعارف العمومية: محمد أحمد جاد المولى، د.ن، د.ت. ١/٦٠٩.

أهميته التي عرف بها في تاريخ الأمم، عربية كانت، أم أعجمية، سوى ما ذكره ابن طباطبا، وربما يرجع السبب في ذلك إلى عدم إفراد البريد كنظام بالتأليف، وكل ما جاء في كتب المصنفين هو الحديث عن وسائله، وطرقه، وصاحبه، ومهامه.

وتعريف ابن طباطبا مقصور على نوع واحد من أنواع البريد، هو النوع الذي استخدمت فيه الخيل كوسيلة لنقل الأخبار، وهو البريد الأكثر انتشاراً في أرجاء الدولة الإسلامية، حيث يقول(1): البريد هو أن يجعل خيل مضمرات في عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة.

هذا التعريف دقيق جداً فيما يسمى بالبريد البري، لكنه أهمل أنواعاً أخري مثل بريد الحمام، وبريد السفن وغيرهما

أما إذا أردنا تعريفاً جامعاً للبريد كنظام يشمل جميع الأنواع فلا مفر من التعميم، حتى تُدرج جميع الأنواع بداخله، فالبريد إذاً هو مصلحة حكومية تقوم بنقل جميع الأخبار وخلافها لصالح الدولة بطريقة سرية، وعبر وسائل سريعة.

وهذا التعريف يصدق على البريد في الدولة الأموية والعباسية وما بعدهما، ولا ينطبق على البريد في عهد النبوة والخلافة الراشدة لأن هذا العصر لم يكن له ديوان للبريد ولم يرتب، بل كان يعني نقل الرسائل الشفوية والكتابية بين فريقين متخاصمين، ولا العصر الحديث كذلك، لأن البريد في هذه الفترة لم يقتصر على مصالح الدولة فقط بل للأفراد فيه النصيب الأكبر.

(1) الفخري في الأداب السلطانية والدول الإسلامية: محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا، دار صادر بيروت، د.ت. ص١٠٦.

الفصل الثاني

تاريخ البريد

المبحث الأول العصر الجاهلي

عرف الناس البريد منذ القدم، ويرجع تاريخ هذه المعرفة عندما أحس الإنسان بالحاجة للتواصل مع الغير مع بعد المسافة، ولا نستطيع أن نحدد بالضبط متى بدأ هذا النوع من التواصل ولا نملك سوى أن نورد أخباراً تشير إلى أن هذا العصر أو ذاك عرفه.

فقد جاء في مناقب إبراهيم عليه السلام أنه أول من برّد البريد(1)، وأن الذي جاء بقميص يوسف عليه السلام لأبيه يعقوب هو البريد، قال ذلك عبد الله بن عباس والضحاك(2) في تفسير قوله تعالى:﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(3).

وقصة سليمان مع الهدهد ليست بخافية علينا، قال: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾(4) وذلك أن سليمان، عليه السلام، كتب كتابًا إلى بلقيس وقومها، وأعطاه لذلك الهدهد فحمله، قيل: في جناحه كما هي عادة الطير، وقيل: بمنقاره، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فألقاه إليها من كُوّة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدبًا ورياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه:﴿ إِنَّهُۥ

---

(١) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي. دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ ١٦٧/١.

(2) جامع البيان في تفسير القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ ٦٣/١٣.

(3) يوسف ٩٦.

(4) النمل ٢٨.

فيـه: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (1)، وبهذه القصة يكون سليمان عليه السلام أول من برّد البريد الجوي.

وقد عرف البريد عند ملوك الفرس والروم، والكثير من المؤرخين يرجعون بدايات ظهوره إليهم، ويجعلون العرب في ذلك مقلدين.

وقد استعمل العرب الخيل في نقل بريدهم منذ الجاهلية يقول آدم ميتز: إن الروم كانوا يستعملون الخيل في حمل البريد وكذلك كان الحال عند ملوك العرب(2).

والشعر خير شاهد على ذلك فقد ذكر البريد في شعر امرئ القيس

عَلى كُلِّ مَقْصُوصِ الذُّنَابَى مُعَاوِدٍ   بَريدَ السَرى بِاللَّيلِ مِنْ خَيْلِ بَرْبَرَا(3)

وقد قال أيضاً(4):

ونادَمْتُ قَيْصَرَ في مُلْكِهِ   فَأَوْجَهَنِي وَرَكِبْتُ البَرِيدَا

وكذلك في شعر المزرد الغطفاني(5):

فَدَتْك عَرَابَ الْيَوْمِ أُمِّي وَخَالَتِي   وَنَاقَتِي النَّاجِي إِلَيْكَ بَرِيدُهَا

وقصة المتلمس المشهورة(6) شاهد كذلك على معرفتهم للبريد فقد قال فيها:(7)

---

(1) النمل ٢٩، ٣٠.

(2) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام: آدم ميتز. نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبوريدة، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م. ٢/٤١٠.

(3) جمهرة اللغة (ب ر د) ١/ ٢٩٥؛ ولسان العرب (برد) ٣/٨٦.

(4) الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني. تحقيق: علي مهنا، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، د.ت. ٨/ ٢٠٥؛ ولسان العرب (يمن) ١٣/٥٥٨.

(5) المستقصى في أمثال العرب: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري. دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧. ١/٣٦١.

(6) الأغاني:. ٢٤/٢٢٨؛ وجمهرة أشعار العرب: أبو زيد القرشي. تحقيق:عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، د.ت. ١/ ٦٥.

(7) ومعجم الأدباء: ياقوت الحموي. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١. ١٤١١هـ- ١٩٩١م. ٥/٥٠٣؛ وخزانة الأدب: عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: محمد نبيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١. ١٩٩٨م. ٣/٢٣.

أَلْقَى الصَّحِيفةَ كَي يُخَفِّفَ رَحْلَهُ ... وَالزَّاد حَتَى نَعْلِهِ أَلْقَاها

وَمَضَى يَظُنُّ بَرِيدَ عَمْرٍو خَلْفَهُ ... خَوْفاً وَفَارَق أَرْضَه وَقَلاَها

والتي صارت مضرب مثل لكل من حمل عقابه بيديه، ومثلها ما جاء من أمر شريح القاضي عندما تشاغل ابنه عن الصلاة فكتب إلى معلمه صحيفة شبهها بصحيفة المتلمس يقول فيها:[1]

تَركَ الصلاةَ لأكْلُبٍ يَسعى بها ... يَبْغِي الهِرَاشَ مع الغُواة الرُّجَّس

فَلَيَأْتينَّك غُدوَّة بِصَحِيْفَةٍ ... كُتِبتْ لَهُ كصَحِيفَةِ المُتَلمِّس

فَإذا أتَاكَ فَخُصُّه بِمَلامةٍ ... أوعِظْهُ مَوْعِظَةَ الأَدِيبِ الكَيِّس

فَإذَا هَمَمتَ بِضَربِهِ فبِدِرَّةٍ ... وإذا بلغتَ بها ثلاثاً فاحْبِس

وَاعْلَم بِأَنَّكَ مَا أتيتَ فَنَفْسُه ... مَع مَا تُجَرِّعني أَعزُّ الأنْفس

وكل ما يمكن قوله في هذا المبحث إنَّ الجاهليين عرفوا البريد، وليس لنا شواهد على ذلك سوى ما ذكرناه..

المبحث الثاني:صدر الإسلام

المطلب الأول: النبوة والخلافة

عُرِف البريد في عهده ﷺ، وورد في أحاديثه ﷺ بمعناه الاصطلاحي، منها حديثه المشهور في هذا الجانب، والذي يعدُّ المعيار الأول الذي اعتمد عليها الخلفاء والملوك والرؤساء من بعده ﷺ في إرساء معايير الرسول بريداً كان أم سفيراً، هو قولهﷺ :﴿ إذا أبردتم إلي بريداً فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم﴾.

واستعمل النبي ﷺ البريد الداخلي والعالمي، واتخذ لأجل ذلك خاتماً يختم به

(1) أخبار القضاة: محمد بن خلف بن حيان. عالم الكتب، بيروت، د.ت، ٢/ ٣٠٧.

الرسائل، وقد أحصى المؤرخون للرسول ﷺ أكثر من ثلاثمائة[1] رسالة وجهها إلى الحكام والأباطرة والملوك والأمراء المعروفين في العالم آنذاك.

وكانت تلك البرد التي أرسلها ذات أثر عظيم في نشر دين الله تعالى، إذ كان الغرض منها نشر الإسلام في ربوع الدنيا، وإلزام الحجة لهؤلاء الأمراء والملوك حتى لا يكون لهم عذر أمام خالقهم بصفتهم المسؤولون عن رعيتهم، لهذا كان الكثير من نصوص الرسالة تلزم الملك أو القائد للدولة بالإسلام أولاً، فإن لم يسلم فستكون التبعة والوزر عليه من جهة قومه.

أما عهد أبي بكر ﷺ فقد أدى البريد دوراً كبيراً في حروب الردة، حيث كان على اتصال دائم ومستمر مع جيوشه كلها، وتصله أخبارها بانتظام، وبشكل سريع، وبرز من الرسل ما بين الجبهات وبين مقر القيادة: أبوخيثمة النَّجَّاري وسلمة بن سلامة، وأبو برزة الأسلمي، وسلمة بن قش[2] ... فكان ﷺ على اتصال مع كل الجبهات، يعلم دقائق أمورها وتحركاتها، وما حققت، وما عليها في غدٍ من واجبات.

وشهد عهد عمر ﷺ توسعاً كبيراً للدولة الإسلامية، وأصبحت هنالك مناطق نائية عن مقر الخلافة لابد من ربطها بالمركز كي يسهل تنظيمها إدارياً، وكان البريد من أهم الأسباب التي ساعدت على ذلك[3].

المطلب الثاني: عصر بني أمية

اعتنى الأمويون بالبريد عناية فائقة، وكان معاوية بن أبي سفيان ﷺ أول من وضعه، لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس، وأهل أعمال الروم، وعرّفهم ما يريد فوضعوا له البريد، واتخذوا لها بغالاً بأكفٍ كان

(1) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي: حسن إبراهيم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٦٥. ص ١٥٧.

(2) تاريخ ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي. دار القلم. بيروت، ط١٩٨٤م. ٢/ ٥٠٢.

(3) الإدارة في عهد عمر بن الخطاب: فاروق مجدلاوي. روائع مجدلاوي، الأردن، لبنان، قطر، ط٢، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م. ص ٢٢٩.

عليها سفر البريد[١].

وكان لهذا الديوان الذي أحدثه أغراض متعددة منها كونه جهاز رقابة دائم على الولاة والعمال، بالإضافة إلى كونه وسيلة لحفظ المال ووصوله من الولايات إلى المراكز وسرعة وصول الأخبار ومتجددات الأحوال، وامتاز البريد في عهده ﷺ بعدة صفات أهمها: سرعة وصول الأخبار بالإضافة إلى التكتم على هذه الأخبار، وحزم الكتب ولم تكن تحزم، حيث اخترع ﷺ ديوان الخاتم.[٢]

وسار البريد على ما هو عليه في فترة حكم يزيد بن معاوية بعد وفاة أبيه، وامتاز عهده بأنه كان للبريد مواعيد محددة لانطلاقه من منطقة لأخرى[٣].

وقد تطور نظام البريد تطوراً ملحوظاً في عهد عبد الملك حيث استفيد منه فائدة كبيرة وقدم لعبد الملك مساعدات عظيمة، فكان في عهده أكثر إحكاماً، وتنظيماً فأصبح أداة مهمة في إدارة شؤون الدولة، أمر بصنع الأميال وهي مسح الأرض بوضع حدود على كل مسافة قدرها ميل وبعمارة أربعة طرق من إيليا ومن دمشق[٤].

المطلب الثالث: عصر بني العباس

وأما البريد في عهد الدولة العباسية فقد ارتفع شأنه وعلت مكانته، بحيث أصبح صاحب البريد يمثل سلطة رقابية على تصرف أصحاب المناصب الرفيعة في الدولة ورجال البلاط.

وكان اهتمام المنصور بسرعة إيصال البريد قد بلغ قمته، حيث إن عماله كانوا يوافونه بالبريد مرتين في كل يوم من صلاة الصبح ومن بعد صلاة المغرب، فكان ملماً

---

(1) التعريف ١٨٤، صبح الأعشى ٤١٢/١٤.

(2) الآداب السلطانية: الفخري ١٠٦.

(3) تاريخ الطبري أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ٣٤٠/٣.

(4) موسوعة الإدارة العربية الإسلامية: المنظمة العربية للتنمية الإدارية – جامعة الدول العربية ١٤٢٤هـ–٢٠٠٤م، ٣٦٤/٧.

بأحوال دولته إلماماً تاماً وذلك بسبب المعلومات التي تأتيه بواسطة البريد[1]. ولكن مع أن البريد كان عوناً للخليفة في استتباب الأمن فقد استُغل أحياناً لمصلحة الخارجين عن الدولة، كما حدث في ثورة الحسين العلوي الثائر على طاعة الخليفة الهادي، فقد أفلت إدريس من وقعة الفخ بعد هزيمة ابن عمه الحسين، وفرّ إدريس إلى مصر - وكان معه في هذه المعركة - وعلى بريدها يومئذٍ واضح مولى صالح بن المنصور ويعرف بالمسكين وكان رافضيًّا، فعلم شأن إدريس، فأتاه إلى الموضع الذي كن مستخفياً به، ولم ير شيئاً أخلص له من أن يحمله على البريد إلى المغرب ففعل، ولحق بالمغرب الأقصى[2].

وفي هذا العصر بلغ الاهتمام بالطرق التي تصل بين أرجاء الجزيرة العربية شأوًا بعيداً، وواضح ذلك من خلال جهودهم التي بذلوها في هذا المضمار، فأول خليفة بني العباس أبو العباس السفاح أمر بإقامة الأميال على الطرق، وهي أحجار تحدد المسافات، وقد نال الطريق من الكوفة إلى مكة النصيب الأوفر في هذا، حيث أمر السفاح سنة ١٣٤هـ/٧٥١م بضرب المنارات والأميال من الكوفة إلى مكة[3].

وفي عهد المهدي عام ١٦٦هـ أمر بإقامة البريد بين مكة والمدينة وذلك لأول مرة ولم يسبقه أحد من الخلفاء لهذا العمل، وقد استخدمت الجمال والبغال لهذا الغرض، مما كان له الأثر الكبير في ربط الحكومة المركزية في بغداد بجميع أنحاء الجزيرة العربية عبر طرق مواصلات راقية التنظيم.

فلما كانت خلافة هارون الرشيد ذكر حسن صنيع البرد التي جعلها الأمويون وأمر بإجراء البريد على ما كان عليه أيام بني أمية، ورتبه وجعل البغال في المراكز، وكان لا

---

(1) المنتظم: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي. دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٥٨هـ ٧/٣٤٧؛ والتعريف ١٥٨.

(2) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري. تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م. ١/٢٠٩.

(3) الحضارة الإسلامية: ٢/٤١١.

يجهز عليه إلا الخليفة أو صاحب الخبر[1].

وبعد انتصار المأمون على الأمين اهتم بالبريد فكان عماله يأتونه بالأخبار من كل مكان حتى لو كانت لا تساوي في نظر كثير من الناس شيئاً وذلك خوفاً من أن تأتيه من مصدر ثان فتكون سبباً لعزله[2].

وفي خلافة المعتصم ساعد نظام البريد في قمع الثورات المناهضة للدولة حيث رتب البريد بين المعتصم وبين جنده، حيث حمل الجنود على خيل البريد[3].

أما البريد في مصر فقد ازدهر في عهد الملك بيبرس من حيث الإتقان والإحكام مبلغاً عظيماً، حيث عرفوا البريد الجوي، ووضع له بيبرس نظاماً يكفل ارتباط جميع أنحاء مملكته بشبكة خطوط من البريد البري والجوي وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل[4].

المبحث الثالث البريد صاحبه، وأنواعه

المطلب الأول: صاحبه

كان الخليفة هو من يقوم بتعيين صاحب البريد بنفسه، بعد توافر الشروط التي تأهله لذلك، لأن مهمته ليست قاصرة على تصدير الرسائل إلى الجهات المطلوب إرسالها إليها واستلام الوارد منها، وإنما كانت تشمل الإشراف على جميع السلطات في مختلف أجزاء الدولة، فمن أهم الشروط: أن يكون ثقة إما في نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته وأن يكون معه ما لا يحتاج في الرجوع فيه إلى غيره، ذلك مما تدعو الضرورة إلى

---

(1) المرجع السابق ٤١١/٢.

(2) مرآة الجنان : عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي. دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م. ٢/ ٣٦.

(3) الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ ٦/ ١٦.

(4) صبح الأعشى ١٤/ ٤١٥.

علم الطرق بسببه"[1].

أما مهامه فكانت كثيرة ومتعددة تتعلق بجوانب رقابية، واستخبارية، واقتصادية، ومعمارية، حيث كان صاحب البريد عين الخليفة الباصرة، وأذنه السامعة، ينقل إليه أخبار عماله، ومساعي أعدائه، وهذه المهام نجدها كلها مجتمعة في نص ولاية عهد البريد الذي أورده قدامة بن جعفر[2] مفصلا في كتابه الخراج.

فصاحب البريد أحياناً ببعض مهامه أشبه برئيس قسم المخابرات وأحياناً أشبه بمراسلي الصحف، والقنوات الفضائية، فهو يتعرف على جميع الأخبار، ويقوم بإرسالها إلى مؤسسته.

وكان لصاحب البريد أعوان يقوم بتعينهم هو، ولا ينبغي له أن يُعيِّن من لا يثق به، وأن يختار من يستعين به في عمله، ويشركه في أمانته، من يثق بصناعته ونزاهته، وطيب طعمه، وتحرِّيه الصدق فيما صدر عن يده ولهجته، وهذه الصفات وغيرها لا بد من توافرها في جميع أعوانه من العمال.

المطلب الثاني: أنواعه

وكان للبريد أنواع أهمها البريد البري الذي كان أوسع انتشاراً وله طرق ومسالك كثيرة ومتنوعة، وحمل أصنافاً من الأشياء التي أريدت على وجه السرعة.

ومن أنواع البريد أيضا التي اهتم بها الخلفاء والأمراء والعلماء الحمام الزاجل "حتى كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيها والإخبار عنها والوصف لأمرها والنعت لمشهورها"[3]، وقد أدى الحمام دوراً كبيراً في

(1) المنزلة الخامسة من كتاب الخراج: أبو فرج قدامة بن جعفر البغدادي. تحقيق: طلال جميل رفاعي مكتبة الطالب الجامعي. ص٢٠١.

(2) المرجع السابق ص٢٠١.

(3) الروض المعطار في أخبار الأقطار: محمد عبد المنعم الحميري، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤م. ص ١٠٧.

الحرب على القرامطة[1].

الفصل الثالث

موضوعات البريد في الأدب

المبحث الأول: الخوف من البريد

كان البريد مصدر خوف وإزعاج ورعب بالنسبة للأمراء والأفراد على السواء، وذلك لأن الإنسان عادة يحدوه الخوف والقلق وعدم التفاؤل عند قدوم الأخبار، خاصة إذا كان في مظهر الرسول ما يدل على عدم التفاؤل أو فعل فعلاً يشير إلى ذلك، ومثال هذا ما فعله و قاله رسول أبي سفيان إلى قريش عندما أراد النبي ﷺ التعرض لعيرهم، فكان أول ما فعله (جدع أنف بعيره، وحول رحله، وشق قميصه)[2]، وهذا كله يدل على أنه يحمل خبراً سيئاً، ثم قال: (اللطيمة اللطيمة)[3]، كل ذلك كان بين يدي الخبر، أراد من صنيعه هذا لفت الأنظار إليه، لكي يسمع الجميع بخبره، لكن بعد أن بلغت القلوب الحناجر خوفاً مما سيخبرهم به.

لهذا لم يكن حديث النبي ﷺ عبثاً حين قال: (إذا أبردتم إلي بريداً فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم) أي إذا أرسلتم إلي رسولاً فتخيروا الحسن الشكل والخلق وكذلك الاسم لكي تنجذب إليه القلوب، وتتفاءل بحسن صورته واسمه، حيث كان النبي ﷺ يشتد

---

(1) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٢/ ٤٢٢.

(2) السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، بيروت، دار الجيل،١٤١١هـ ٣/ ١٥٥.

(3) المرجع السابق ٣/ ١٥٥.

عليه الاسم القبيح ويكرهه، إذاً هذا حال النبي ﷺ المؤيد بالوحي، في اختيار الرسل والذي ربما يعرف الخبر قبل أن يصرح به حامل البريد، فغيره بالضرورة أولى.

لذلك نجد أن المجتمع في الدولة الإسلامية لم يكن يرتاح لهذه الوظيفة، بل كان يعتبرها مصدر رعب لهم، حتى بالنسبة للأمراء فقد جاء عن المغيرة بن شعبة ﷺ قوله: أحب الإمارة لثلاث، وأكرهها لثلاث، أحبها لرفع الأولياء، ووضع الأعداء، واسترخاص الأشياء، وأكرهها لثلاث: لروعة البريد، وموت العزل، وشماتة الأعداء.

ومن نصوص الشعر الدالة على تخوفهم من البريد:

إذَا مَا بَرِيدُ الشَّامِ أقبَلَ نَحْـوَنَا   بِبَعْضِ دَوَاهِي الدَّهرِ[1] سَارَ فَأَسْرَعَا

فَإِنْ كَانَ شَرّاً سَـارَ يَوْماً وَلِيْلَةً   وَإِنْ كَـانَ خَيْراً قَصَّدَ السَّـيْرَ أَرْبَعَا[2]

وأضاف الشاعر في البيت الثاني معنىً آخر يضاف لروعة البريد هو سرعة المكاره وتباطؤ المحاب، وقد تمثل معاوية رضي الله عنه بالبيت الثاني لما بلغته وفاة الحسن بن علي عليهما السلام، ومما يليق بهذا المعنى قول الشاعر:

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ سَيَّر الْخَيرِ رَيْثٌ[3]   وَأَنَّ الشَّــرَّ سَائِرُهُ يَطِيرُ[4]

ومثله قول محمد بن يسير: [5]

تَأْتِي الْمَكَارِهُ حِينَ تَأْتِـي جُمْلَةً   وَتَرَى السُّرُورَ يَجِـيءُ فِي الْفَلَتَاتِ

وكان من الدواهي التي يأتي بها البريد أخبار العزل، عزل الولاة والأمراء من

---

(1) وفي رواية: بِبَعْضِ دَوَاهِي المفظعات. البيان والتبيين: عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق: فوزي عطوي.دار صعب، بيروت، د.ت ٤٩٩/١.

(2) الرسائل للجاحظ ٢٧٧.

(3) الرَّيْثُ الإِبْطاءُ، رَيَّثَ بالتشديد أَي بَطِيءَ عن ابن الأَعرابي وتَرَيَّثَ فلانٌ علينا أَي أَبطأَ وقيل كلُّ بَطيء رَيِّثٌ. لسان العرب ١٥٧/٢(ريث).

(4) البيان والتبين ٤٩٩/١.

(5) المرجع السابق ٤٩٩/١.

مناصبهم، فإن هذا من أشق الأخبار عليهم، سئل عمار بن ياسر عن الولاية فقال: هي حلوة الرضاع مرة الفطام، ولعل عماراً اقتبس هذا المعني من حديث النبي ﷺ: (إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ وَإِنَّهَا سَتَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسْرَةً وَنَدَامَةً فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ)،[1] فقوله: (فَنِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ) ذلك لأن أولها معه المال والجاه واللذات الحسية والوهمية، (وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ) لأن آخرها معه القتل والعزل والمطالبة بالتبعات يوم القيامة. يقول الشاعر[2]:

إنَّ الأَمِيرَ هُوَ الَّذي ... يُدعى أميراً يَوْمَ عَزْلِهْ
إنْ زَالَ سُلْطَانُ الْوِلا ... يَةِ كَانَ في سُلْطَانِ فَضْلِهْ

وفي المعنى نفسه:

لا تَفْرَحَنَّ فَكُلُّ وَالٍ يُعْزَلُ ... وَكَمَا عُزِلْتَ فَعَنْ قَرِيْبٍ تُقْتَلُ
إنَّ الْوِلايَةَ لا تَدُومُ لِوَاحِدٍ ... إنْ كُنْتَ تُنْكِرُهُ فَأَيْنَ الأَوَّلُ
وَكَذَا الزَّمانُ بِمَا يَسُرُّكَ تَارَةً ... وَبِمَا يَسُوءُكَ تارَةً يَتَنَقَّلُ[3]

ولابن المعتز:

شُخُوْصُ ولايَةٍ كَشُخُوْصِ عَزْلٍ ... عَلَى دَهشٍ وَعِزٌ مِثلَ ذُلٍّ
وَوَجْهُ العَزْلِ يَضْحَكُ كُلَّ يَوْمٍ ... وَيَطْنُزُ في قَفَا الْوَالي المُدِلِّ

وله أيضا:[1]

---

(1) الجامع الصحيح: البخاري ١٨/ ٦١. حديث برقم (٧١٤٨).

(2) نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين أحمد النويري، دار الكتب العلمية، بيروت / لبنان، ط١، ١٤٢٤ هـ- ٢٠٠٤ م. ٥/ ١٣٦.

وكشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: إسماعيل بن محمد العجلوني: دار إحياء التراث العربي، د.ت. ٢/ ٤.

(3) المحاسن والأضداد: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري، مكتبة الخانجي، القاهرة ط٢، ١٤١٥هـ -١٩٩٤م. ٤٢/١.

كَمْ تَائِهٍ بِوِلايَةٍ   وَبِعَزْلِهِ رَكَضَ البَرِيدْ
سُكْرُ الوِلايَةِ طَيِّبٌ   وَخُمَارُهَا[2] صَعْبٌ شَدِيدْ

ويقال السكر ثلاث سكر الشباب وسكر الولاية، وسكر الشراب وهو أهونها، وقد أبلغ هذه السكرات خمسا من قال وأحسن

سكرات خمس إذا مني المرء   بها صار أكله للزمان
سكرة المال والحداثة والعشق   وسكر الشراب والسلطان[3]

وكل هذا الخوف مرده خشية النفس من الأمور التي تغيب عنها، خاصة إذا كانت هنا أو هناك أحداث أو حوادث قائمة والناس يترقبون انقشاعها فالفرزدق مثلا يذكر في قصيدة له يمدح فيها أسداً بن عبد الله القسري إنه قبل مجيئه له كان يستطلع أمره من البريد حين احتدم القتال بين المسلمين والأتراك والنفس تخشى المغيب يقول:

إلى أسَدٍ سارَتْ برَحْلي وَخَاطَرَتْ   عَوَادِيَ مِنْ غُلْبٍ يكادُ زَئِيرُها
تَصَدَّعُ منهُ الأرْضُ وَهيَ صَحيحَةٌ   إذا سَمِعَتْهُ أوْ تَقَلّعَ قُورُها
وَكُنْتُ إذا جَاءَ البَرِيدُ سَأَلتُهُ   على دَهَشٍ، والنّفسُ يخشَى ضَميرُها
حَوَادِثَ أخْشَى أنْ يَمَسّكَ بَعضُها   إذا التّرْكُ لاقَى المُسلِمينَ مُغيرُها
وَأنْتَ امرُؤٌ في النّاسِ ما مِنْ قَبيلَةٍ   تُحَالِفُهَا، إلاّ يَعِزّ نَصِيرُهَا

ومن أخبار البريد التي ينصدع لها القلب ويحزن، أخبار الموت، ففي هذا صور الشعراء حالتهم، أو حالة غيرهم، عند قدوم الخبر، والأثر الذي يحدثه بعد سماعهم له.

---

(1) ديوان ابن المعتز، شرح يوسف فرحات، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م. ص٢٣٨، و تهذيب الرياسة وترتيب السياسة: أبو عبد الله القلعي تحقيق : إبراهيم يوسف، و مصطفى عجو، مكتبة المنار - الأردن الزرقاء، ط١، د.ت. ٥٩/١.

(2) الخُمار: صداع الخمرة. لسان العرب ٤/ ٢٥٤(خمر).

(3) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: أبو منصور عبد الملك الثعالبي. تحقيق: محمد بن إبراهيم، دارالمعارف - القاهرة، ط١ ، ١٩٦٥. ١/ ٦٢٠.

فمن الذين وصفوا حالهم في مثل هذه المواقف يزيد بن معاوية عندما جاءه البريد يحمل خبر مرض أبيه الذي كان سبباً في موته، ولما وصل يزيد الخبر قال[1]:

جَـاءَ الْـبَرِيدُ بِقُـرْطَاسٍ يَخُبُّ به ... فَأَوْجَسَ القَلْبُ مِنْ قِرطَاسِهِ فَـزَعَا
قُلْنَا: لَكَ الوَيْلُ، مَاذَا فِي صَحِيفَتِكُم؟ ... قَالُوا : الخَلِيفَةُ أَمْسَى مُثْبَتاً وَجِـعَا
مَادَتْ بِنَا الأَرض أَوْ كَـادَتْ تَمِيدُ بِنَا ... كَأَنَّ مَا عَـزَّ مِنْ أَركَـانِهَا انْقَلَعَـا
ثُمَّ انْبَعَثْنَا إلى خُـوصٍ مُضَـمَّرَةٍ ... نَـرمِي الفِجَـاجَ بِهَا مَا نَأتَلِي سَـرعَا
فَمَـا نُبَالِي إِذْ بَلَّغْـنَ أَرحـلنَا ... مَا مَاتَ مِنهـنَّ بالْمَـرمَاتِ أَوْ ظَلعَـا
مَنْ لَمْ تَزَلْ نَفسُهُ تُوفِـي عَلَى شَـرَفٍ ... تُوشِكْ مَقَادِيرُ تِلكَ النَّفسِ أَنْ تَقَـعَا
لَمَّا وَرَدْتُ وَبَاب القَصْـرِ مُنْطَبِقٌ ... لِصَوْتِ رَمْلَةَ هُـدَّ القلبُ فَانصَـدَعَا

واضح جداً ما أحدثه البريد في نفس يزيد، قبل معرفة الخبر وبعده ، فإن البيت الأول فيه إشارة إلى أن هذا الإحساس كان عند مجيء البريد، وقبل سماع الخبر، لذلك نجده قد عبر بعبارة قوية هي قوله: (فَأَوْجَسَ) وهي من عبارات القرآن الكريم، التي عبر بها عن حال موسى، عندما أَلْقَى السحرةُ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ، وخُيِّلَ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى، عندها يقول الله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾[2]، وكذلك عبر بها عن حال إبراهيم عندما نزلت الملائكة ضيوفاً عنده فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إلى الطعام قال الله تعالى واصفاً حال إبراهيم:﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[3] و﴿خِيفَةً﴾[4] في الآيتين بمعنى (خوفا) أي فزعاً وهي العبارة التي جاءت في بيت يزيد.

(1) نهاية الأرب في فنون الأدب ٢٠/ ٢٣٠، والأغاني ١٧/ ٢١٠، ٢١٣.

(2) طه الآية ٦٧.

(3) هود الآية ٧٠.

(4) خِيفَةٍ من الخَوْف. لسان العرب ٩/ ١٠١ (خيف).

إذاً أحدث البريد في نفس يزيد فزعاً وخوفاً، أشبه بتوجس إبراهيم وموسى في الآيتين السابقتين، لذلك دعا بالويل على حامل الخبر، وفي هذا دليل على الصدمة وعدم التركيز؛ لأن حامل الخبر لا ذنب له، وربما لا علم له بالخبر الذي يحمله، ثم إنَّ ما حدث له بعد أن أجابوه على سؤاله كان من تأثير الخبر الذي حمله البريد.

وقد يحمل البريد ما هو مفرح، لكن في كثير من الأحيان يسبق هذا الفرح خوف وفزع عند قدوم البريد، وهذا ما حدث تماماً مع الوليد بن يزيد، في الليلة التي جاء فيها البريد، يحمل له خبر موت عمه هشام، ويبشره بالخلافة، فقد جاء في المصادر[1] أنه قال لكاتبه ليلة مجيء الخبر: ما أتت عليّ ليلة أطول من هذه، عرضت لي أمور حدثت نفسي فيها بأمور، وهذا الرجل (يعني هشاماً) قد أولع بي، فاركب بنا نتنفس، فركب وسرتُ معه فسار ميلين، ووقف على تل فجعل يشكو هشاما، إذ نظر إلى رهج[2] قد أقبل، قال عمر بن شبة[3] في حديثه وسمع قعقعة البريد فتعوذ بالله من شر هشام، وقال هذا البريد قد أقبل بموت وَحِيٍّ[4] أو بملك عاجل، فقلت: لا يسوؤك الله أيها الأمير، بل يسرك ويبقيك، إذ بدا رجلان على البريد مقبلان، أحدهما مولى لأبي سفيان بن حرب، فلما قربا أتيا الوليد فنزلا يعدوان حتى دنوا فسلما عليه بالخلافة، فوجم، فجعلا يكرران عليه التسليم بالخلافة، فقال: ويحكما ما الخبر أمات هشام؟ قالا: نعم، قال مرحبا بكما، ما معكما؟ قالا: كتاب مولاك سالم بن عبد الرحمن، فقرأ الكتاب وانصرفنا.

(1) تاريخ مدينة دمشق: أبو القاسم علي بن الحسن عبد الله الشافعي. تحقيق: محب الدين عمر بن غرامة، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م. ١٨/ ٤٤٢. الأغاني ٧/٢٣.

(2) الرهج: الغبار. لسان العرب ٢/ ٢٨٤. (رهج).

(3) هو أبو زيد عمر بن شبَّة بن عبيلة بن ريطة. وشبةُ اسمه زيدٌ وكنيته أبو معاذ وسُميَ شبَّة لأن أمه كانت ترقصه وتقول: يا بأبي وشبا، وعاش حتى دبَّا، شيخاً كبيراً خبَّا. معجم الأدباء. ٢/ ٢١٤.

(4) وَحِيٌّ: أي ذبَحه ذبْحاً سريعاً، جاء في اللسان: ذبح وَحِيٌّ سريع. ٧/ ٣١٢، وفي مادة أخرى موت مُجْهِز أي وَحِيّ. ٥/ ٣٢٥. وجاءت العبارة في بعض المصادر (فجيء) تاريخ دمشق ١/ ١١٩٢.

فقال والله لأتلقين هذه النعمة بسكرة قبل الظهر، ثم أنشأ يقول[1]:

طَابَ عَيْشِي وَطَاب شُرُبُ السّلافَةِ   إِذْ أَتَانَا نعـــي من بالرّصافة
وَأَتَانَا الْبَرِيد يَنْعـــى هِشـَـاماً   وأتانا بخاتم للخـــــــلافة

وقال أيضا[2]:

طَالَ لَيْلِـي وَبِتُّ أُسْقَى الْسُّلاَفَه   وَأَتَانِي نَعِـــيُ مَـنْ بالْرُّصَافَةْ
وَأَتَانِـــي بِبُرْدَةٍ وَقَضِـــــيبٍ   وَأَتَانِي بِخَاتَمٍ لِلْخِـــلافَهْ[3]
فاصطبحنا من خمــر عانة صـرفا   ولهـــونا بقينة عـــــزافه

ثم حلف أن لا يبرح موضعه حتى يغني في هذا الشعر ويشرب عليه.

والوليد بن يزيد وإن كان قد سعد بهذا الخبر، لكنه انتابه الخوف عندما سمع قعقعة البريد، وتعوذ من شر هشام، الذي كان يسومه سوء العذاب، لفسقه ومجونه، فهذا دليل على أن الأخبار عند قدومها مفزعة، وإن كانت تحمل البشرى.

والخوف من البريد نجده بكثرة في شعر الرثاء، لأنه هو مصدر الأخبار المؤلمة غالباً، خاصة أخبار الموت، فإن كثيراً من الشعراء في رثائهم لا يقفون فقط على ذكر محاسن الْمُرْثَى، بل الكثير منهم يصور كيف جاء الخبر، والأثر الكبير أو العميق الذي تركه في نفسه، مما حدا ببعضهم أن يدعو بالشر على حامل الخبر.

وهذه الأمور التي ذكرتُها نجدها مجتمعة في رثاء الفرزدق لمحمد بن يوسف، ومحمد بن الحجاج، وقد ماتا في جمعة[4] واحدة، يقول:

---

(1) الأغاني ٣٣/٧.

(2) رسائل الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت. ٢٧٥/٢.

(3) وفي رواية: وَأَتَانِي بِحُلَّةٍ وَقَضِيبٍ   وَأَتَانِـي بِخَاتَمٍ ثُمَّ قَامَا. الأغاني ٣٣/٧.

(4) لما أصيب الحجاج بولده وأخيه في يوم واحد ففي غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج، فلما كان بالعشي أتاه بريد من اليمن بوفاة محمد أخيه، ففرح أهل العراق، وقالوا: انقطع ظهر الحجاج وهيض جناحه، فخرج فصعد المنبر، ثم خطب الناس فقال: أيها الناس محمدان في يوم واحد، أما والله ما كنت أحب أنهما معي في الحياة الدنيا، لما أرجو من ثواب الله لهما في

فَلَيْتَ البَرِيدَينِ اللَّــذَينِ تَتَابَعَا   بِمَا أَخْبَـرَا ذَاقَا الذُّعافَ المُسَلَّعَا
أَلا سَلَتَ اللهُ ابنَ سَلْتى كَمَا نَعَـى   رَبِيعاً تَجَلَّـى غَيْمُهُ، حِينَ أَقلَعَـا
فَـلا رُزْءَ إلاّ الدِّينَ أَعْظَمُ مِنهُـمِا   غَـداةَ دَعَا ناعِيهمَا، ثُمَّ أَسْمَـعا
عَـلانِيَةً أَنَّ السِّماكَينِ فَارَقَـا   مَكَانَيْهِمَا وَالصُّمَّ أَصْبَحْنَ خُشَّعَا[1]

بلغ من حزن الشاعر أن تمنى أن يسم البريد الذي حمل نعيهما، وتمنى لابن سلتي الذي حمل الخبر أن يقطعه الموت قطعاً لقاء حمله ذلك النعي، لمن كان ربيعاً تجلى وبدا غيمه يهم بالمطر.

وفي القصيدة نفسها يقول:[2]

وَقَـائِلَةٍ لَيْتَ القِيامَةَ أُرْسِـلَتْ   عَلَيْنَا وَلَمْ يُجْرُوا البَـرِيدَ المُقَـزَّعَا
إلَيْنَا بِمَخْتُومٍ عَلَيْها مُـؤجَّـلاً   لِيُبْلِغَناها عَاشَ في النَّاسِ أَجْـدَعَا
نَعَى فَتَيَيْنَا لِلْطِّعانِ وَلِلقِـرَى   وَعَدْلَينِ كَانَا لِلْحُكُـومَةِ مَقْـنِعَا

يقول إن بعض النسوة عندما سمعن الخبر، تمنين أن لو قامت القيامة قبل أن يحل ذلك الخطب المختوم عليه، أي الرسالة التي ختمت بختم البريد.

والمتنبي كان حاضراً في هذا النوع من الرثاء، فقد رثى أخت سيف الدولة

الآخرة، وايم الله ليوشكن الباقي مني ومنكم أن يفنى والجديد أن يبلى، والحي مني ومنكم أن يموت، وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها، فتأكل من لحومنا وتشرب من دمائنا كما مشينا على ظهرها وأكلنا من ثمارها وشربنا من مائها ثم نكون كما قال الله تعالى: ﴿ ﴾ ثم تمثل بهذين البيتين:

عــزائي نبي الله من كل ميت   وحسبي ثواب الله من كل هالك
إذا ما لقيت الله عــني راضيا   فإن سـرور النفس فيما هنالك.

جمهرة خطب العرب: أحمد صفوت، المكتبة العلمية، بيروت. ٢/ ٢٩٩.

(1) شرح ديوان الفرزدق، ضبط معانيه وشروحه وأكملها: إيليا الحاوي، الشركة العالمية للكتاب، ط٢، د. ت. ١/ ٣٦.

(2) المرجع السابق ٢/ ٣٧.

الكبرى بقصيدة جاء فيها:

طَوَى الجَزِيرَةَ حَتَـى جَاءَني خَبَرٌ فَـزِعْتُ فِيهِ بآمَالِـي إلى الْكَـذِبِ
حَتَـى إِذَا لَمْ يَدَعْ لـِي صِـدْقُهُ أَمَلاً شَرِقْتُ بِالدَّمْعِ حَتَى كَادَ يَشْرَقُ بِي
تَعَثَـرَتْ بِهِ فِي الأفْـوَاهِ أَلْسُـنُهَا وَالبُرْدُ فِي الطُّرْقِ وَالأَقْلامُ فِي الْكُتُبِ

يقول: جاءني خبر موتها من الشام وقطع الجزيرة حتى وصل إلي، فلما سمعته التجأت إلى التعلل بالآمال الكاذبة فقلت: لعله يكون كذباً، فلم ينفعني ذلك، فلما تحققت صدقه، ولم يبق فيه موضع أمل بكيت جزعاً، حتى سار دمعي وجرى في حلقي وشَرِقْتُ، ثم زاد وفاض، حتى غمرني، فصرت في وسطه كالجرعة من الماء في الحلق، لعظم هذا الخبر تعثرت الألسن في الأفواه، فلم تقدر على أن تنطق به إذا أرادت الإخبار عنه، وكذلك البرد الذي تحملت هذا الخبر تعثرت في الطرق، وتعثرت الأقلام في الكتب، فلم تقدر أن تكتب هذا الخبر.

والبيت الأخير كان فيه أخذ ورد بين النقاد خاصة في تعثر القلم والبرد، فقد قال الواحدي(1): أي لهول ذلك الخبر، لم تقدر الألسن في الأفواه أن تنطق ولا البريد في الطريق أن يحمله، ولا الأقلام أن تكتبه، وقد جاء عن العرب ما هو أشد من هذا، كقول الشاعر:

وأشْـرَبُ الْمَاءَ مَا بِـي نحوه عطشٌ إلا لأنَّ عيـونَهُ سِيلَ وَادِيهـا

وقال المعري(2): يريد أن هذا الخبر نبأٌ عظيمٌ لا تجترئُ الأفواهُ على النطقِ به، وهذا قد يجوز أن يكون صحيحاً، لأن الإنسان ربما هاب الإخبار بالشيء لعظمه في نفسه، وكذلك الكاتب الذي يكتب بالخبر الشنيع، ربما يعثر قلمُهُ هيبةً للأمر الذي دخل فيه، وإنما التعثرُ للكاتب، وأما إذا ادعى التعثر من البرد، فكذبٌ لا محالة، لأن البريد لا يشعر

(1) خزانة الأدب ٤٠٨/٦.

(2) المرجع السابق (ص) نفسها.

بالخبر، وقد ذكر في موضع آخر ما يدل على أن حامل الكتاب الذي لا يشعر ما فيه غير شاقٌ عليه حمله فكيف بالدابة التي لا يحكم عليها بالعقل، وذلك قوله لعضد الدولة:

حاشاكَ أن تَضْعُفَ عــن حَملِ ما　　　تَحَمّلَ السّائِــرُ في كُتْبِهِ

وقال المبارك بن أحمد المستوفي[1]: لا فرق بين تعثر القلم وتعثر البريد، لأن نسبة ذلك إليهما محال، وإذا اعتذر في القلم بتعثر الكاتب، فهلا اعتذر في البريد بتعثر أصحابه، لأن كلاً من الأقلام والبرد لا يشعر بالخبر.

قول المعري: (وأما إذا ادعى التعثر من البرد، فكذبٌ لا محالة)، وقول المبارك: (فهلا اعتذر في البريد بتعثر أصحابه) أقول قد يكون الحق في غيرهما وذلك لأنه ربما علم حامل البريد بهذا الخبر، لأنه انطلق من أرض علمت هذا النبأ العظيم، أو لأنه من الأخبار التي لا ضرورة في الإسرار بها، لذلك حصل له التعثر، أما تعثر الدابة فحصل ربما بضرب غير معتاد لكي تسرع في السير فحصل لها التعثر بسبب الخبر بطريقة غير مباشرة.

ولا بن رشيق[2] في رثاء قاضي بلدة المحمدية طاهر بن عبد الله وقد بلغه وفاته بالقيروان:

الْعَفْرُ في فَـمِ ذاكَ الصَّارخِ النَّاعِــي　　　وَلا أُجِيبَتْ بِخَيْرٍ دَعْـوَةُ الدَّاعِــي
فَقَدْ نَعَـى مِلءَ أَفْــواهٍ وأَفْئِـدَةٍ　　　وَقَدْ نَعَـى مِلْءَ أَبْصَارٍ وأَسْمَــاعِ
أَمَّا لَئِنْ صَـحَّ مَا جَـاءَ الْبَـرِيدُ بِهِ　　　لَيَكْثُرَنَّ مِـنَ البَاكِينَ أَشْيَاعِــي
يَا شُـؤْمَ طَائِرِ أَخْبَارٍ مُبَــرِّحَةٍ　　　يَطِيرُ قَلْبِي لَـهَا مِنْ بَيْنِ أَضْـلاعِي
مَا زِلْتُ أَفْــزَعُ مِنْ يَأْسٍ إلى طَمَــعٍ　　　حَتَّـى تربَّعَ يَأْسِي فَوْقَ أَطْـمَاعِي
فَالْيَوْمَ أُنفِـقُ كَنْزَ الْعُمْــر　　　لَمَّا مَضَـى وَاحِدُ الدُّنيا بِإِجْمَـاعِ

(1) المرجع السابق (ص) نفسها

(2) ديوان ابن رشيق، شرح صلاح الدين الهواري، هلى عودة، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م. ص٩٨.

أَجْمَـــعَهُ

تُوُفِّيَ الطَّاهِرُ القَـاضِي فَــوَا إنْ لَمْ يُوفِّ تَبَارِيحِي وَأَوْجَاعِـــي أَسَـفا

واضح جداً ما سببه هذا الخبر من ألم وحزن أمتد إلى من يشايعه أو يماثله في حب هذا القاضي، خبر بسببه طار قلب الشاعر، خبر جعل يأسه يتحكم في طمعه ويغلبه، هذا وغيره من الأحزان التي عبر عنها كانت بسبب ما نقله البريد.

ومن رثاء عروة أذينة[1] ولم يخل من الخوف من البريد:

أتانا البريدُ التَّغلـــبيُّ فَرَاعَنَا لَهُ خَبَرٌ شَفَّ الفُـــؤَادَ فَأَنْعَمَا

بْمَوتِ أَبِـي حَفْصٍ فَلا آبَ رَاكِـبٌ بِمُوتِ أَبِي حَفْصٍ أخـبَّ وَأَرْسَمَا

وكان هشام بن عبد الملك يكثر تنقص الوليد بن يزيد فكان مسلمة بن عبد الملك يعاتب هشاما ويكفه فمات مسلمة فغم الوليد ورثى مسلمة فقال:

أتانا بَــرِيدانِ مـــن واسِطٍ يَخُبَّان بالكُـــتُب المُعْجَـمَـهْ

أقول وما البعدُ إلاّ الــــرَّدَى أمَسْلَمُ لا تَبْعَــدَنْ مَسْـلَمَـهْ

فقد كنتَ نوراً لنا فـــي البلاد تُضِــيء فقد أصبحتْ مُظْلِمَـهْ

وللقطامي[2] يمدح أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري[3] : أبيات ليست هي من الرثاء وإنما هي في المدح ولكن يتمني أن لا يرجع البريد بخير قط إذا مات ممدوحه هذا

---

(1) هو عروة بن أذينة، وأذينة لقبه، واسمه يحيى بن مالك، يكنى أبا عامر، شاعر غزل مقدم، من شعراء المدينة. الأغاني ١٨/ ٣٣٠.

(2) القطامي التغلبي واسمه عمير بن شييم بن عمرو بن عباد بن بكر بن عامر بن أسامة التغلبي الشاعر المشهور. تاريخ مدينة دمشق ٤٦/ ٩٧.

(3) أسماء بن خارجة بن حصن الفزاري من سادات أهل المدينة وجلة التابعين مات سنة ٦٥هـ. مشاهير علماء الأمصار: محمد بن حبان أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: م. فلايشهمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٥٩م. ١/ ٧٥.

إذَا مَاتَ ابْنُ خَـــارِجَةَ بن حِصْنٍ   فَلاَ مَطَـرَتْ عَلَى الأَرْضِ السَّمَاءُ
وَلاَ رَجَـــعَ البَرِيْدُ بِغُنْمِ جَيْشٍ   وَلاَ حَمَلَتْ عَلَى الطُّهْـرِ النِّسَـاءُ

هذا ولم تخل أشعار الشعراء من ذكر البريد بالأخبار المفرحة، لكنها لم تكن في حجم المحزنة، فمما جاء من بشارات البريد في الشعر ما قاله الفرزدق[1] في هجاء مالك بن المنذر بن الجارود[2]، وكان قد حبسه، فخلاه النضر بن عمرو المنقري[3] أمير البصرة:

إذا ما بَـــريدُ النَّضْـرِ جاءَ بِنَصْـرِهِ   وَسُلْطَانُهُ ألقَـــى قُيُودَ ابنِ غالِبِ
لَئِـنْ مَالِكٌ أمسَـى قَدِ انْشَعَبَتْ بـه   شَعُـوبُ التي يُـودَى لها كلُّ ذاهِبِ

ومنها أيضا مجيء البريد بخبر ولاية عمر بن عبد العزيز فقد قال رجل من الأنصار:

ثمَّ جاء البـــريدُ يُخْـــبرُ أنَّ الـــ   ـقوم طرّاً لم يُحـــرِموا التوْفيقا
مِنْ سُكُـــونٍ وَأُلْفَـةٍ وَاجِـــتماعٍ   لَمْ يُفَارِقْ منهـــم فـريقٌ فـريقا
قلَّدوا الأمــر سَيِّد النَّاس كلِّ الـــ   ـنَّاسِ نفساً وأُســـرةً وعــروقا
من أبوه عبد العزيز بن مـــــروا   ن ومـــن كان جدُّهُ الفـاروقا

المبحث الثَّاني دواب البريد

تمهيد:

استعمل العرب في نقل بريدهم البغال والخيل والإبل، وهي وسائل النقل المتوافرة لديهم، حتى أواخر نهاية الدولة العباسية، وكانوا يختارون لنقل البريد الدواب

(1) شرح ديوان الفرزدق ١/ ٥٥.

(2) عندما قدم خالد بن عبد الله القسري البجلي أميراً على العراق، استعمل على شرطة البصرة مالك بن المنذر بن الجارود. انظر تبيين كذب المفتري: علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٤. ١/ ٨٩.

(3) لم أعثر له على ترجمة، لكن واضح أنه خلف ابن الجارود على البصرة.

سريعة العدو، حتى يصل بريدهم بأقصى سرعة ممكنة، وكانوا أيضا يجعلون لها علامة مميزة تعرف بها، هي قص أذنابها، ويحملون عليها كل شيء أرادوه على وجه السرعة، كما كانوا يطلقون كلمة بريد على الدابة التي تحمل البريد، هذه هي الموضوعات التي جاءت في أدبهم فيما يخص دواب البريد شعراً كان أم نثراً.

المطلب الأول: قص أذنابها

الشعر هو المصدر الوحيد الذي وثق لنا هذا الحقيقة، فوضعها لنا منذ العصر الجاهلي وليس هنالك ثمت مصدر قديم موثوق يبين لنا هذا الأمر سوى الشعر، ألا ترى أن أول من ذكر ذلك امرؤ القيس في شعره لما كان ساعياً للملك، كيف ذكر خيل البريد والفرانق يعني البريد، على أنَّه لم يستغن عن ذكر الإبل للعادة التي جرت على ألسنتهم، فقال يصف رحيله إلى قيصر ملك الروم[1]:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ ... وَأَيْقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بِقَيْصَرَا

فَقُلْتُ لَهُ: لا تَبْكِ عَيْنُكَ، إنَّمَا ... نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

فَإِنِّي أَذِينٌ إِنْ رَجَعْتُ مُمَلَّكاً ... بِسَيْرٍ تَرَى مِنْهُ الفُرَانِقَ أَزْوَرَا[2]

عَلَى لاحِبٍ لا يَهْتَدِي بِمَنَارِهِ ... إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ النَّبَاطِيُّ جَرْجَرَا[3]

---

(1) ديوان امرئ القيس، دار صادر، بيروت، د. ت. ص٩٥.

(2) الأذين: الكفيل، الصحاح ٦/ ٣٤٦.

(3) السّوف: هو الشم. لسان العرب ٩/ ١٦٤ (سوف)، والعَوْدِ هو الجمل الكبير المُسِنُّ المُدَرَّبُ. المرجع السابق ٣/ ٣١٥(عود)، وطريقٌ لاحِبٌ و لَحْبٌ و مَلْحوبٌ إذا كان واضحاً. السابق ١/ ٧٣٥ (لحب). والجرجرة: صوت يردده البعير في حنجرته عند الضَّجَر. السابق ٤/ ١٢٥(جرر). فقوله (لا يهتدى بمناره) لم يرد أن له مناراً لا يهتدي به، ولكن أراد أنه لا منار له فيهتدي بذلك المنار وكذلك قول زهير:بأرض خلاء لا يسد وصيدها ... علي، ومعروفي بها غير منكر. ومعنى قوله: (إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ النَّبَاطِيُّ جَرْجَرَا) إنّ هذا الطريق إذا أشمه العود من الإبل ضج منه. المثل السائر في أدب الكاتب: أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد الموصلي ، المكتبة العصرية - بيروت ، ١٩٩٥. ١/ ٧٥.

عَلى كُلِّ مَقْصُوصِ الـذُّنَابَى مُعَاوِدٍ بَرِيدَ السُّـرَى بِاللَّيلِ مِنْ خَيْلِ بَربَرَا
أَقَبَّ[1] كَسِرْحَانِ[2] الغَضَـا مُتَمَـطِّرٍ تَـرَى الْمَاءَ مِـنْ أَعْطَـافِهِ قَدْ تَحَدَّرَا

إِذَا زُعْـتُهُ مِنْ جَانِبَيهِ كِلَيْـهِـمَا مَشَـى الهَيْـدَبى في دَفِّهِ ثُمَّ فَـرفَرَا[3]
إِذَا قُلْـتُ رَوِّحْنَا أَرَنَّ فُـرَانِقٌ عَلَـى جَـلْعَدٍ واهي الأَبَاجِلِ أَبْتَرَا[4]

وفي أبياته هذه إشارات واضحة للبريد منها قوله: (بِسَيْرٍ تَرَى مِنْهُ الفُرَانِقَ أَزْوَرَا) والفرانق الذي يدل على صاحب البريد[5]، ومنها قوله: (عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ الذُّنَابَى مُعَاوِدٍ) وهي العلامة التي قصدتها آنفا، وكذلك هي في قوله: (واهي الأَبَاجِلِ أَبْتَرَا) أي منفتق الأباجل بالجرى، أبتر محذوف. ولم تكن هذه العلامة خاصة بالخيل، بل الإبل كذلك، فقد جاء في شعر تميم بن مقبل أبيات تشير إلى ذلك، وقال تميم بن مقبل[6]:

وكُلِّ عَلَنْدى قُصَّ أَسْفَـلُ ذَيْلِهِ فَشَمَّرَ عَنْ سَاقٍ وأَوْظِفَةٍ عُجْـرِ[7]

---

(1) القَبُّ: ضرب من اللجم أصعبها وأعظمها. كتاب العين ٥/ ٣٠ (قمم).

(2) السِّرْحانُ الذِّئبُ: والجمع سَراحٍ. لسان العرب ٤٧٧/٢ (سرح).

(3) الهيدبى بالمهملة: وهي مشيه فيها تبختر. ويروى الهيذبى، بالذال المعجمة سير سريع، من أهذب الفرس في سيره، إذا أسرع. الصحاح ٣/ ٣٤٤. الفرفرة: الخفة والطيش. المرجع السابق.

(4) جَلْعد: الصلب الشديد. لسان العرب ١٢٨/٣ (جلعد).

(5) التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م. ١/ ٦٨٠.

(6) ديوان تميم بن مقبل، شرح مجيد طراد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٨. ص٦١.

(7) العَلَنْدى: البَعير الضخم، الجمل الطويل. اللسان ٣٠٢/٣ (علند) ، الأوظفة: جمع وظيف، وهو عرق يمتد من تحت ركبة الفرس إلى كلِّ من الجانبين السابق ٩/ ٣٥٨ (وظف)، والعجر : هو الغليظ الصلب. السابق ٤/ ٥٤٢ (عجر).

مُلِحٌّ إذَا الْخُـورُ اللَّهَامِيمُ هَـــرْوَلَتْ وَثُوبٌ بِأَوْسَاطِ الخَبَارِ عَلَـى الفَتْرِ[1]

تَقَلْقَلَ عَـــنْ فَأْسِ الُلجَـــامِ لَهَاتُهُ تَقَلْقُلَ سِنْفِ المَرْخِ في الجَعْبَةِ الصِّفْرِ[2]

قص أسفل ذيله أي حذف، وله أيضا[3] في قصيدة يهجو بها الأخطل

ونِسْوَةُ عَامِـــرٍ وبَنِي سُـــلَيْمٍ وأعْصُرَ مَـــا سُلِينَ ولاَ خَزِينَا[4]

حَمَـــى أَبْضَاعَهَا الشُمُّ الغَيَارَى رَدَوْا مِـــنْ دُونِهَا بِالدَّارِعِينَا[5]

بِكُلِّ أَشَقَّ مَقْصُوصِ الذُنَابَـــى بِشَكِّيَّاتِ فارسَ قَـــدْ شُجِينَا[6]

وقد جاء ذكرها في شعر الفرزدق عندما هجا قيساً في أمر قتيبة بن مسلم الباهلي[7]، قال[1]:

---

(1) المُلِحّ: المحب للجري. السابق٢/٥٩٩(ملح). الخور: جمع خوّار هو الجواد الكثير الجري. السابق ٤/١٦١(خور). الخَبَار: الأرض اللينة الرخوة تغرق فيها الخيل. السابق ٤/ ٢٢٦ (خبر) .

(2) تقلقل: تتحرك وتضطرب. السابق ١٠/ ٣٣١ (لقق). فأس اللجام الحديدة القائمة في فم الجواد.السابق ٦/ ١٥٨ (فأس). المرخ شجر سريع الاشتعال. السابق ٣/ ٥٣(مرخ). وسنف المرخ: وعاء ثمره. اللسان ٩/ ١٦٢(سنف). الجعبة: وعاء السهام وتسمى أيضا الكنانة. السابق ١/ ٢٦٧(جعب).

(3) ديوان تميم بن مقبل ١٥٦ – ١٥٧.

(4) عامر وسليم: قبائل من قيس عيلان. معجم القبائل القديمة والحديثة: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط٥، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م. ٢/ ٧١٢. أعصر كذلك من قيس عيلان. السابق ١/ ٣٥. خزين: تغير وأنتن . اللسان١٣/ ١٣٩(خزن).

(5) الأبضاع: جمع بُضْع وهو فرج المرأة. السابق ٨/ ١٢(بضع). الشم: الشامخ الأنف. السابق ١٢/ ٣٢٥(شمم). الدارعون الذين يسلبون الدروع. السابق ٤/ ١٨٧(حسر).

(6) الأشق: الفرس الطويل القامة. السابق١٠/ ١٨١(شقق). الشكيات: جمع شكي، وهو اللجام من حديد السابق ١٠/ ٣٥٣(نشق).

(7) أمير خراسان قتيبة بن مسلم الباهلي، كان ولي الأعمال بمرو، وأرمينية، والموصل، والجزيرة، والسند، وكان عالماً بالحديث والعربية ، مات سنة تسع ومائتين. العبر في خبر من غبر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق د. صلاح الدين المنجد،مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤م. ١/ ١٠٠.

أَتَانِــــي وَأَهْلِي بِالْمَـــدِينَةِ وَقْــعَةٌ   لآلِ تَمِيمٍ أَقْعَــدَتْ كُـــلَّ قَائِـــمِ
كَأَنَّ رُؤُوسَ النَّاسِ إِذْ سَمِعُوا بِـهَا   مُدَمَّغَةٌ هَـازِمَاتٍ أَمَـــــائِمِ(2)
أَتَغضَبُ أَنْ أُذنا قُتَيبَةَ حُـــزَّتا   جِهاراً وَلَمْ تَغضَبْ لِيَومِ اِبنِ خـــازِمِ(3)

وَمَا مِنهُـــما إِلَّا بَعَثْنَا بِرَأسِـــهِ   إِلى الشَّأْمِ فَوْقَ الشّاحِجَاتِ الرَّواسِمِـ(4)

تَذَبذَبُ فِي المِخْلاةِ تَحْتَ بُطُـونِها   مُحَذَّفَةَ الأَذنَابِ جُلْـحَ الْمَـــقادِمِ(5)

قال أبو العباس المبرد(6) قوله: فَوْقَ الشَّاحِجاتِ، يعني البغال والرّسيم: ضرب من السير، وإنما عنى به ههنا بغال البريد، لقوله: محذّفة الأذناب جُلْحَ الْمَقادِمِ كما قـال امـرؤ

---

(1) الكامل في اللغة والأدب: محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس تحقيق : محمـد أبـو الفـضل إبـراهيم،دار الفكـر العربـي – القاهرة، ط٣،١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م،٢/٥٩.

(2) الهازمة: الداهية. المعجم الوسيط :إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبـد القـادر: تحقيـق: مجمـع اللغـة العربيـة، دار الدعوة، د.ت. ٢/ ٩٨٥.

الأمائم:جمع أُمَيْمَةٌ وهي مِطْرَقَةُ الحَدّادِ ، أي تصرع الرؤوس. المحيط في اللغة: أبو القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني عالم الكتب – بيروت / لبنان – ١٤١٤هـ –١٩٩٤ م. ١٠/ ٤٦١.

(3) ابن خازم هو عبد الله بن خازم السّلميّ، وهو أحد غربان العرب في الإسلام، وكان من أشجع الناس، وقتلته بنـو تمـيم بخرسان، وكان الذي ولي قتله منهم وكيع بن الدّورقيّة القريعيّ. يقول: إن القيسسيين غضبوا لقتل قتيبة بذبحـه مـن الأذن إلى الأذن الأخرى ولم يثوروا بمقتل بشر بن حازم. الأعلام خير الدين الزركلـي، دار العلـم للملايـين، بـيروت، ط١٧، ٢٠٠٧م. ٧/ ٣٢٤.

(4) الشاحجات: لِحُجَّلِ اللسان ٢/ ٤٧٨ (سرح). الرواسم: العلاية عدو الرسيم. السابق ٢/٢٤١ (رسم).

(5) يقول: إن تلك الرؤوس حُمِلَتْ على الخيل بالمخالي، وكانت تتحرك تحت بطونها وقد اجتثت عـن أجسامها واقتطـع شعرها.

(6) الكامل في اللغة والأدب ٢/ ٥٩.

القيس:

علـى كل مقصوص الذنابي معاود   بريد السـرى بالليل من خيل بربرا

وذكر الفرزدق أيضاً في مرثية وكيع بن أبي سود البُرد وأنها مقـصوصة الـذنب فقال[1]:

لِتَبْكِ وَكِيعاً خَيْلُ لَيْلٍ مُغِــــيرَةٌ   تَسَاقَــى الْمَنَايَا بِالرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ[2]

لَقُوا مِثْلَهُمْ فَاستَهزَمُوهُمْ بِدَعَــوةٍ   دَعَوْهَا وَكِيعاً والْجِيَادُ بِهِمْ تَجْرِي[3]

وَبَينَ الَّــذِي نَادَى وَكِيعاً وَبَيْنَهُمْ   مَسِيرَةُ شَهْـــرٍ لِلْمُقَصَّصَةِ الْبُترِ[4]

يقول في البيت الثالث: إنهم ينادونهم من مسافات نائية قَدَّرها الـشاعر بمـسير البريد شهراً كاملاً وأشار للبريد بخيل مبتورة الأذناب (لِلْمُقَصَّصَةِ البُترِ).

المطلب الثاني: وصفها بالسرعة:

لم تُوصَفْ بالسرعة في الشعر صراحة، وإنما كانت العـرب إذا أرادت أن تـصف شيئاً بالسرعة شبهته بالبريد، فقالوا أسرع من البريد وتعني بذلك دوابه، مثلما شبه النبي ﷺ سرعة تعاقب الليل والنهار بالبريد فقال: (إن الليل والنهار يتعقبان تعاقـب البريـد يقربان كل بعيد)[5] .

يقول الفرزدق في دابة له يصفها بأنها أسرع من البريد[6]:

لَوْ كُنتَ مِثلــي، يا خِيَارُ، تَعَســَّفَتْ   بكَ البِيدُ ضَرْبَ العَوْهَجيِّ وَداعـرِ[1]

---

(1) ديوان الفرزدق ١/ ٣٤٢.

(2) الرُّدَيْنِيَّةِ: السهام. اللسان ١٣/ ١٧٧ (ردن).

(3) يقول: إن المقاتلين الطارئين حين يلتقون قوم وكيع، فإن قومه يصيحون مستنجدين، به، والخيل تجري بالقتال.

(4) المقصصة: ما كان لها قصة أي ناصية.

(5) أعلام النبوة: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م. ١/ ٢٩٨.

(6) شرح ديوان الفرزدق ١/ ٣٩٦.

وكُنْتَ علـى أرْضِ المَهاري مُؤمَّـراً　　عَلى كلّ بادٍ مِنْ مَعَدٍّ وَحَاضِـــــر[2]
مُهَلَّلَةَ الأعْضَادِ إنْ سِـــرْتَ لَيْلَةً　　بهَا أصْبَحَتْ خِمسَ البَـريد المُبادرِ

وموضع الشاهد في البيت الأخير حيث يقـول: إنهـا تتحـرك أعـضادها وكأنّهـا متهللة وتسير بها في ليلة ما يسيره البريد في خمسة أيام.

وفي وصف الراعي النُّميري لدابته إشارة لسرعة البريد يقول:

فَلَمَّا تَــــرَكْنَ الـــــدّارَ رُحْـنَ بِيَـانِعٍ　　مِــــنَ النَّخْلِ لاَ جَحْنٍ ولاَ مُتَبَدِّدِ[3]
نُقُلْتُ لأَصْحَابِي هُمُ الْحَيُّ فَالْحَقُـــوا　　بِحَـــوْرَاءَ فِي أتْرَابِهَا بِنْتُ مَعْبَـدِ[4]
فَمَا أَلْحَقَتْنَا الْعِيسُ حَتَّـــــى وَجَدْتَنِي　　أَسِفتُ عَلَـــى حَادِيهِمُ الْمُتَـــجَرِّدُ[5]
وَقَدْ أَرْخَتِ الضَّبْعَيْنِ حَـرْفٌ شِمِلَّةٌ　　بِسَيرٍ كَفَانَا مِنْ بَرِيدٍ مُخَـــــوِّدِ[6]

يقول: لقد أرخت هذه الناقة الضخمة السريعة إبطيها، وانطلقت بسيرها، حتى لحقت بمن نحب، وكفتنا الحاجة إلى البريد السريع ليطمئننا عنهن.

وقد وصف الشعراء نوعاً من البريد سمّـوه بالبريـد الـسريع، علـى قـرار مـا في عصرنا هذا من وصفنا نوعاً محدداً بأنه سريع، وأوضح مثال لهذا البيتان اللذان ذكرتهمـا

(1) عوهج وداعر: العَوْهَجُ الناقة الطويلة العنُق. اللسان ٢/ ٣٣٢(عوهج)، ودَاعِرٌ اسم فحل مُنْجِبٍ تنسب إليه الدَّاعِرِيَّةُ من الإبل. السابق ٤/ ٢٨٦(دعر). وهما فحلا الفرزدق.

(2) المهاري: عمان. معجم البلدان ٥/ ٢٣٢.

(3) اليانع: الأحمر من كل شيء. اللسان ٨/ ٤١٥(ينع)، والجحن: كلُّ نبت ضعف فهـو جَحِـنٌ والمُجْحَـن بـضم المـيم مـن النبات القصيرُ القليل الماء. السابق ١٣/ ٨٥(جحن).

(4) الحوراء: من اشتد بياض البياض وسواد السواد في عينها. اللسان ٤/ ٢١٧(حور)، والأتراب: الأصحاب من سـنٍّ واحـدة. السابق ١/ ٢٢٧(ترب).

(5) الحادي: راعي الإبل الذي ينشد لها لتسير. السابق ٣/ ١٧٩(رعد). والمتجرد: الجاد، تجـرد زيـد لأمـره: جـد فيـه. الـسابق ٣/ ١١٥(جرد).

(6) الضَّبعان: الإبطان. السابق ٨/ ٢١٦(ضبع). الحرف : الناقة الضامرة السابق ٩/ ٤١(حـرف). الـشملة: الـسريعة. الـسابق ١١/ ٣٦٤(شمل). المخود: خوَّدَ البعيرُ تَخْويداً إذا أسرع. السابق ٣/ ١٦٥.

آنفاً:

إذا مَا بَرِيدُ الشَّامِ أقبَلَ نَحْـوَنَا ... بِبَعْضِ دَوَاهِي الدَّهرِ سَارَ فَأَسْـرَعَا
فَإِنْ كَانَ شَرّاً سَـارَ يَوْماً وَلَيْلَةً ... وَإِنْ كَانَ خَيْراً قَصَّدَ السَّيْرَ أَرْبَـعَا

فقد جعله الشاعر على نوعين، نوع سريع يحمل الدواهي، وآخر بطيء يحمل الخير.

وسمى البَعيث بن حُرَيْث الشاعر هذا النوع بالمذبذب أي السريع في قوله[1]:

خَيـالٌ لأمِّ السَّلْسَبيلِ وَدُونَهـا ... مَسِيرَةُ شَهْـرٍ لِلْبَرِيدِ الْمُذَبْذَبِ[2]
فَقُلْتُ لهُ أهْـلاً وسَهْلاً وَمَـرْحَباً ... فَرَدَّتْ بِتَأْهِيلٍ وَسَهْلٍ وَمَـرْحَبِ

خيالٌ لهذه المرأة أتاني أو زارني، وبيني وبينها مسيرة شهرٍ للبريد المسرع المتعجل، يقول المرزوقي[3]: وقوله: (الْبَرِيدِ الْمُذَبْذَبِ) كما يقال للسائق الحاث طاردٌ، ألا ترى قوله يصف فرساً:

ويَسْبِقُ مَطْـرُوداً ويَلْحَقُ طارداً ... ويَخْرُجُ من غَمِّ المَضِيقِ ويَجْـرَحُ

لأن المذبذب والمذبِّب[4] الأصل فيهما واحدٌ، يرجع إلى الطرد والاستعجال، والمسرع المستعجل.

وكان بعض الشعراء إذا أرادوا تبليغ رسالة على وجه السرعة دعوا لها البريد،

(1) شرح ديوان الحماسة : أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، نشره: أحمد أمين، وعبد السلام هارون، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٣٧١هـ- ١٩٥١م، ١/ ٣٧٦.

(2) أم السلسبيل اسم امرأة والسلسبيل الماء السهل المساغ، ولو أن هذا الشعر مولد لجاز أن يراد به الريق على جهة التشبيه والبريد هنا الدابة المركوبة والمذبذب المسرع الذي لا يستقر والمعنى خيال لهذه المرأة زارني بيني وبينها مسيرة شهر للبريد المسرع . المرجع السابق ٣٧٦/١.

(3) المرجع السابق ١/ ٣٧٧.

(4) وقال ابن منظور: وذَبَّبَ أَسْرَعَ في السَّيرِ. اللسان ١/ ٣٨٠ (ذبب).

كما فعل أنس بن أناس[1] عندما هرب من زياد وأتى سعيداً بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية[2] فلما اطمأن عند سعيد بن العاصي بالمدينة قال:

أَلا مَنْ مبلغٌ عنّي زِياداً مُغلغلةً يَخُبُّ بها البَريدُ
بأني قد فررتُ إلى سعيدٍ وَلا يُسْطَاعُ ما يَحْمي سعيد
فَررتُ إليه مِنْ ليثٍ هِزبْرٍ تَفَادى عن فريسته الأُسود[3]

وقال أيضاً: [4]

ألا من مبلغ عني زياداً مغلغلةً يخب بها البريد
أيعزلني ويطعمها خليداً لقد لاقت حنيفة ما تريد[5]
عليكم باليمامة فاحرثوها فأولكم وآخركم عبيد

المطلب الثالث: ما حمله البريد وجه ذكره في الشعر:

أولاً: حمل الأفراد

حملت العرب كل ما تحتاجه من متاع وغيره على دواب البريد، خاصة إذا أرادته

(1) هو ابن أبو أناس الكناني الديلي من رهط أبي الأسود الديلي وهو من أشرافهم، وابن أخي سارية بن زنيم وكان شاعرا وهو القائل لرسول الله (وما حملت من ناقة فوق رحلها ... أبر وأوفى ذمة من محمد) وابنه شاعر أنس بن أبي أناس بن زنيم وجعلة ابن أخي سارية بن زنيم استخلفه الحكم بن عمرو الغفاري على خراسان حين حضرته الوفاة فعزله زياد واستعمل خليداً بن عبد الله الحنفي: فقال أنس الأبيات أعلاه. الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ٣/ ١١٦.

(2) سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية القرشي الأموي في شعره، استعمله معاوية على المدينة، وكان سعيد ممن ندبه عثمان لكتابة القرآن. وكان جواداً، ولم ينزع قميصه قط، وكان أسود نحيفاً. نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية: الشيخ عبد الحي الكتاني، الكتاب العربي، بيروت، د.ت. ١/ ١١٥، ١٢٥، ١٩٣.

(3) تاريخ الطبري ٣/ ٢١٥.

(4) تاريخ الطبري ٣/٢٣٥.

(5) خليد هو خليد بن عبد الله الحنفي الذي ولاه زياد بعد عزل أنس. تاريخ الطبري ٣/٢٣٥.

على وجه السرعة، فأول من حُمل أو ركب على البريد وصرّح بذلك في شعره امرؤ القيس الشاعر وذلك عندما صار إلى ملك الروم، فأكرمه ونادمه، واستمله فوعده ذلك، وفي هذه القصة يقول[١]:

ونادَمْتُ قَيْصَـــر في مُلْـكِهِ فَأَوْجَـــهَنِي وَرَكِبْتُ البَرِيدَا
إذَا مَا ازْدَحَمْنَا عَلَـــى سِكَّةٍ سَبَقْتُ الفُـــرَانِقَ سَبْقاً بَعِيدَاً

وممن حمله البريد عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى[٢]، وكان اسمه عمراً بن جفنة الغساني فقد جاء في شعر ورقة بن نوفل يبكيه[٣]:

ألاَ هَلَ أتَى ابنَتَي عُثْمَان أنَّ أبَاهُـما حَانتْ مَنِيَّتهُ بِجَنْبِ الفَـــرْصَدِ
رَكِبَ البَرِيدَ مُخاطِراً عـــنْ نَفْسِهِ مَيْتُ المَضِنَّةِ للبَـــريدِ المُقْصَدِ
فلأَبْكِيَنْ عثمانَ حَـــقَّ بُكَـــائِهِ ولأنشُدَنْ عَمْـــراً وإن لم يُنْشَـدِ

وممن حمله البريد وصرح بذلك في شعره أيمن بن خريم[٤] الشاعر، وله في ذلك

---

(1) الشعر والشعراء ٢/ ١٧٤.

(2) إن عثمان خرج إلى قيصر، فسأله أن يملكه على قريش، وقال: " أحملهم على دينك، فيدخلون في طاعتك ففعل، وكتب له عهداً وختمه بالذهب؛ فهابت قريش قيصر، وهموا أن يدينوا له؛ ثم قام الأسود بن المطلب أبو زمعة؛ فصاح، والناس في الطواف: "إن قريشاً لقاح لا تملك ولا تملك" فاتسعت قريش على كلامه، ومنعوا عثمان مما جاء له؛ فمات عند ابن جفنة؛ فاتهمت بنو أسد ابن جفنة بقتله، ومن شعره:

ظلمت فلم يغضب علي ونوفل . . . وليس على أبي هشام معول

ألا ليت حظي من تويت ونصره . . . نضي إذا أرمي به لا يعقد. نسب قريش: أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري، تحقيق: ليفي بروفسال، دار المعارف – القاهرة، د.ت، ٦/ ٢١٠.

(3) المرجع السابق، ٦/ ٢١٠.

(4) هو أيمن بن خريم بن عمرو بن فاتك الأسدي، كان يسمى خليل الخلفاء لأعجابهم به في تحديثه، لفصاحته وعلمه، وهو من شعراء الدولة الأموية، ولأبيه صحبة برسول الله ﷺ. معرفة الصحابة: أبو نعيم الأصبهاني، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض ط١، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م. ١/٣١٩، و الأغاني ٢٠/ ٣٢١.

قصة ومع نصيب[1] الشاعر، فقد دخل نصيب يوماً إلى عبد العزيز بن مروان فأنشده قصيدة له امتدحه بها، فأعجبته، وأقبل على أيمن بن خريم فقال كيف ترى شعر مولاي هذا، قال: هو أشعر أهل جلدته فقال، هو أشعر والله منك، قال: أمِني أيها الأمير، فقال: إي والله، قال: لا والله، ولكنك طرف ملول، فقال: لو كنت كذلك ما صبرت على مؤاكلتك منذ سنة وبك من البرص ما بك فقال: ائذن لي أن أخرج إلى بشر بالعراق، واحملني على البريد، قال: قد أذنت لك وأمر به فحمل على البريد، إلى بشر[2]، فقال أيمن بن خريم

رَكِبْتُ مِـــنَ الْمُقَطَّـمِ فِي جُمَادَى إِلَى بِشْـــرِ بْنِ مَرْوَانَ البَرِيدَا
فَلَوْ أَعْطَاكَ بِشْــــرٌ أَلْفَ أَلْفٍ رَأَى حَـقَّاً عَلَيْهِ أَنْ يَـــزِيدَا
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَقِــــمْ بِبِشْرٍ عَمُـودَ الْحَقِّ إن لَهُ عَمُــودَا
وَدَعْ بِشْــراً يُقَوِّمْهُمْ وَيُحْدِثْ لأَهْلِ الزَّيْغِ إِسْلَاماً جَـــدِيدَا

ووجَّه معاوية لما كلّموه في يزيد بن ربيعة بن مفرِّغ[3] رجلا مجرَّداً، لإخراجه من السجن، فخرج حتى أتى سجسْتان، فبلغ ذلك عبَّاد بن زياد[4]، فأرسل إلى حمْحام، فلما رأى عهد معاوية كفَّ، وأقبل حمْحام بابن مفرِّغ على بغلةٍ من بغال البريد، وأنشأ ابن

(1) هو نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان وكان لبعض العرب من بني كنانة ، كان شاعرا فحلا فصيحا مقدما في النسيب والمديح ولم يكن له حظ في الهجاء وكان عفيفا وكان يقال إنه لم ينسب قط إلا بامرأته. الأغاني ١/ ٣٦٢.

(2) بشر بن مروان الأموي أمير العراق ولي إمرة العراق لأخيه عبد الملك وله دار بدمشق عند عقبة الكتان وهو أول أمير مات بالبصرة وهو أول من أحدث الأذان للعيد بالكوفة فأكبر الناس ذلك وأعظموه، وكانت وفاته سنة ٧٥هـ الوافي بالوفيات: صلاح الدين بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م. ١٠/ ٩٥.

(3) السيد لقبه واسمه إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري ويكنى أبا هاشم وأمه امرأة من الأزد ثم من بني الحدان وجده يزيد بن ربيعة شاعر مشهور وهو الذي هجا زيادا وبنيه ونفاهم عن آل حرب وحبسه عبيد الله بن زياد لذلك وعذبه ثم أطلقه معاوية. الأغاني ٧/ ٢٤٨.

(4) هو أبو حرب عباد بن زياد بن أبي سفيان، ولي لمعاوية سجستان سبع سنين، وفيه يقول ابن مفرغ: (سَبَق عَبَّاد وصَلَّت لِحْيَتُه) وكان هجاء بن مفرغ له سبباً في أن يسجنه أخوه زياد عبيد الله بن زياد وكان والي خرسان. الأغاني ١٨/ ٢٦٨.

مفرِّغ يقول:

عَـــــدَسْ مَا لِعبَّادٍ عَلَيْك إمَارةٌ   نَجوْتِ وَهَـــذا تَحْمِلِينَ طَلِيقُ
طليقُ الَّذي نَجَّى مِنْ الكربِ بَعْدَمَا   تَلاحَـــمَ في دَرْبٍ عَلَيْكِ مَضِيقُ[1]

وقد أورد الجاحظ[2] وغيره أقوالاً كثيرة في قولهم للبغلة: (عَدَس) منها: أنها اسم لكلّ بغلة.

ثانياً: حمل الرؤوس:

حمل الرؤوس على البريد إحدى الموضوعات التي جاء ذكرها في الشعر، من ذلك قصة حمله لرأس الأشعث[3]، فقد بعث الحجاج إلى رتبيل[4] بألف ألف درهم وأربعمائة ألف درهم مع عمارة بن تميم[5] في ثلاثين فارساً، على أن يسلم عليه عبد الرحمن بن الأشعث، فغدر به رتبيل، وسلمه إليهم، فأوثقوه بالحديد، على أن يحملوه إلى الحجاج، فقال ابن الأشعث: والله لا يتلاعب بي الحجاج تلعب الهرة بالفأرة، فرمى نفسه من فوق قصر، كانوا عليه بالرخج، فمات، فحملوا رأسه إليه، فبعثه إلى عبد الملك بن

(1) ديوان يزيد بن مفرغ الحميري، صالح، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٨٢م. ص١٧٠. ورسائل الجاحظ ٢٧٣.

(2) الرسائل ٢/ ٢٧٣- ٢٧٤.

(3) عبد الرَّحْمَن بنُ الأَشْعَث خرج على الحجاج بن يوسف عندما تولى العراق، فغلب الحجاج حتى قتل عظيمة ابن الأشعث، وقتل معه خلق عظيم . جواب أهل السنة النبوية: عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب. دار العاصمة، الرياض، ط٣، ١٤١٢هـ. ١/ ٧، ٣٩/٢.

(4) رتبيل: كان ملك الترك، ويسمى من قبلهم بالدراري، وكانت الترك بتخوم سجستان، غزا المسلمون أرضه بقيادة عبيدة الله بن أبي بكرة من قبل الحجاج، وسقطت في أيديهم، سنة تسع وسبعين.الوافي بالوفيات ٢٨/ ٥٤، وتاريخ الطبري ٣/ ٦١٤.

(5) عمارة بن تميم اللخمي، ويقال القتبي، وفد على عبد الملك مع الحجاج بن يوسف وولاه فلسطين، وكان من عقلاء العرب، وولي سجستان للحجاج، ثم عزله، وولى عبد الرحمن بن سليم، وذلك سنة أربع وثمانين. تاريخ مدينة دمشق ٤٣/ ٣٠١، ٣٠٢.

مروان، فبعثه عبد الملك إلى مصر وفيه يقول الشاعر [١]:

يا بعد مصـــرع جثة من رأسها   رأس بمصـــر وجثة بالرخـــج
قتلوه بغـــياً ثم قالــــوا بايعوا   وجـــرى البريد برأس أروع بلج [٢]

وفيه يقول الشريف الرضي [٣]:

فَمِن قَبلِ ما اِختارَ اِبنُ الأَشعَثِ عَيشَهُ   عَلـــى شَرَفٍ باقٍ رَفيعِ الدَعائِمِ
فَـــطَارَ ذَمـــــيماً قَـــدْ تَقَلَّـــدَ عَـــــارَهَا   بِـــشَرِّ جَنَـــاحٍ يَـــــومَ دَيـــرِ الجَمَاجِمِ [٤]
وَجَـــاءَهُمُ يَجْـــــــرِي البَرِيدُ بِرَأسِهِ   وَلَـــمْ يُغْنِ إيغالٌ بِهِ فِي الهَزائِـــمِ

وللفرزدق يخبر عن رؤوس حُمِلَتْ على الخيل بالمخالي، وكانت تتحرك تحت بطونها وقد اجتثت عن أجسامها واقتطع شعرها.

أَتَغضَبُ أَنْ أُذنا قُتَيبَةَ حُـــــــزَّتا   جِهاراً وَلَـــمْ تَغضَـــبْ لِيَومِ اِبنِ خازِمِ
وَمَا مِنهُـــــما إِلّا بَعَثــــْنَا بِرَأسِهِ   إِلى الــــشَّأمِ فَـــوْقَ الـــشَّاحِجَاتِ الـــرَّواسِمِ [٥]
تَذَبذَبُ فِي المِخْلاةِ تَحْتَ بُطُـــونِها   مُحَنـــَّفَةَ الأَذنَابِ جُلْـــحَ الْمَقَـــادِمِ

وفي رجز لابن المعتز [٦]:

مَا زَالَ يَأْتِـــي لَكَ ما تُـــــرِيدُ   حَتَّى أَتَـــى بِرَأسِهِ البَـــرِيدُ

---

(1) البدء والتاريخ: المطهر بن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، د.ت. ٦/ ٣٧.

(2) البلج الفرح والسرور لسان العرب ٢/ ٢١٥ (بلج).

(3) ديوان الشريف الرضي، شرح يوسف فرحات، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م. ٣٨٢/٢.

(4) دَير الجَملجِم: موضع قرب الكوفة كانت فيه وقعة بين الحجاج وابن الأشعث. معجم البلدان ٢/ ٥٠٣.

(5) الرواسم: العادية عدو الرسيم. اللسان ٢/ ٤٧٨(سرح).

(6) ديوان ابن المعتز، شرح يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م ص٧٧١.

وَابتَهجَ الحَقُّ وَأَهْلُ السُنَّه وَشكَروا وَاللَهِ تِلكَ المِنَّه

المبحث الثالث: ذم البريد

مهمة صاحب البريد هي نقل الأخبار بعد الحصول عليها غالباً عن طريق التجسس على جميع أفراد الدولة، من هنا جاء كره الناس لصاحب البريد فقد ذكر ابن أبي الدنيا: (أن الناس كانوا ينظرون إلى أصحاب الأخبار نظرة ملؤها الخوف والشؤم، معبراً عن ذلك فيما أورده عن وهب بن منبه عندما جاءه رجل وأخبره بشتم فلان له، قال وهب: أما وجد الشيطان بريداً غيرك)،[1] لذلك لا غرابة أن يربط الناس بين أصحاب الخبر والشياطين وهذا يدل على مدى كره الناس لهم وتنوّع أساليب الطرق التي كان يستخدمها أصحاب الأخبار في الوصول إلى أهدافهم من جهة، وإلى الممارسات التي كانت تستخدمها الدولة في حق الرعية من جهة أخرى.

وإن ما أورده الكندي[2] حول صاحب الخبر لا يخلو من طرافة من ناحية، ومن ناحية أخرى يؤكد مدى الخوف الذي كان يحيط بالناس في مجالسهم منذ فترة مبكرة من تاريخ الدولة الإسلامية، وهي الدولة الأموية، وفي زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك، فقد ذكر أن قرة بن شريك والي مصر، كان صاحب قدرة استخبارية عالية، وذلك لاعتماده على أصحاب أخبار كانوا يزودونه بالتقارير الدقيقة، مما مكّنه من إحكام قبضته على ولاية مصر.

فقد أشار إلى صاحب خبر له أن يتتبع أخبار الشراة (الخوارج) الذين حاولوا الثورة بمدينة الإسكندرية والخروج عليه، وكان صاحب خبره هذا يُكنى بأبي سليمان، ومن

---

(1) الإشراف في منازل الأشراف، عبدالله بن محمد بن عبيد القرشي ابن أبي الدنيا، مكتبة الرشد، الرياض،ط١، ١٩٩٠م. ص ١٥١.

(2) ولاة مصر: محمد بن يوسف الكندي، دار صادر بيروت، د.ت. ص٨٠.

الطبعي أن يكون هذا الاسم من الأسماء المستعارة (الحركية) التي كان يتكنى بها أصحاب الأخبار حتى لا يعرفوا لدى الناس، فجاء أبو سليمان وجلس معهم، وكانوا حوالي مائة رجل، وخلال الاجتماع، اتفقوا على تولية أمرهم لشخص من بينهم يسمى بأبي المثنى، وذلك عند منارة الإسكندرية، ثم ناقشوا ما يجب عليهم فعله تجاه الدولة الأموية والأمويين، وقبل أن ينفض اجتماعهم، كانت جند قرة بن شريك قد ألقت القبض عليهم جميعاً، وحبستهم في منارة الإسكندرية.

ومنذ ذلك الوقت أصبح اسم (أبو سليمان) رمزاً لأصحاب الأخبار والمخبرين. فكان يزيد بن حبيب مفتي مصر إذا أراد أن يتكلم بشيء من تقية السلطان تلفت حوله وقال: (احذروا أبا سليمان)، ويبدو أن حذره من شخص واحد لم يفده، وأن الأخبار كانت تنقل عن طريق الخاصة الذين كان يجالسهم، مما اضطره إلى القول يوماً: (الناس كلهم أبو سليمان).

وأورد ابن منظور بأن الحمى بريد الموت، وفي الرجز: (رأيت للموت بريداً مبرد)، وذلك للارتباط المباشر بين دعوة المغضوب عليهم من قبل ولاة الأمور، وتوقيع عقوبة السجن أو الموت عليهم.

ويرى التنوخي أن المخالفات التي كان أصحاب الأخبار يرتكبونها هي السبب الرئيس وراء تأليفه لكتاب "نشوار المحاضرة"، وذلك لما كان يقوم به أصحاب الأخبار والمتخبرون من تقديم التقارير المنطوية على الطرافة والحيل والمكايد[1].

ولما ولي سعيد بن حميد[2] بريد الآفاق، قال فيه أبو عليّ البصير[3] :

---

(1) نشوار المحاضرة: أبو علي المحسن التنوخي البصري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٤م/١/ ٣٠٢.

(2) الإشراف ١/ ١٥١.

(3) أبو علي البصير الفضل بن جعفر بن يونس أبو علي النخعي الشاعر المعروف بالبصير: من أهل الكوفة، سكن ببغداد، وكان قدم من سر من رأى أول خلافة المعتصم ومدحه ومدح جماعة من قواده، ومدح المتوكل والفتح بن خاقان، وكان

بأبـي نفس سعـــيد		إنهــا نفس شـــريفه
لم تـــزل تحتال حـــتى		صـــــار غماز الخليفه[1]

وللبحتري[2] يهجو ابن قماش[3]

دَهَتْكَ بعـــلَّة الحمَّام فـــوز		ومال بها الـــرسول إلى " سعيد "[4]
أرى أخبـار دارك عنك تخفـى		فكيفَ وليتَ أخبارَ البـــريدِ؟

وله[5] يهجو الحارثي[6]

صَكَكْتَ عَلَى (سُلَيْمَانَ بن وَهْبٍ)		(أبَا حَسَنٍ)، بِدِيوَانِ البـــرِيدِ!
وَآلُ أبِي الـــوَزِيرِ رَغَوْتَ فِيهِـــمْ		رُغَاءَ البَكْرِ، فِي وَادِي ثَمُـــودِ[7]
وَأمَّـــا (أحْمَـــــــــدُ بْنُ أبِي دُؤَادٍ)		فَقَدْ أيْتَمْتَ مِنهُ أبَا الْـــوَلِيدِ(١)

يتشيع تشيعاً فيه بعض الغلو، وله في ذلك أشعار، وكان أعمى وإنما لقب بالبصير على العادة في التفاؤل. الوافي بالوفيات ٢٤/٢٤.

(1) تحسين القبيح وتقبيح الحسن : عبد الملك بن محمد أبو منصور الثعالبي تحقيق : نبيل عبد الرحمن حياوي، دار الأرقم – بيروت، د.ت ١/ ٥٦.

(2) ديوان البحتري، تحقيق وشرح: حسن كامل الصيرفي، ذخائر العرب، دار المعارف، القاهرة، ط٣، د.ت. ١/ ٥٢١.

(3) اسمه عبد الرحيم بن أبي قماش لم أعثر له على ترجمة ويبدو من شعر الشعراء أنه ولي عملاً من أعمال البريد.

(4) فوز وفي رواية خود اسم امرأة.

(5) ديوان البحتري ٢/ ٧٨٢– ٧٨٣.

(6) سليمان بن وهب بن سعيد بن عمرو الحارثي، وزير، من كبار الكتاب، ولد ببغداد، وكتب للمأمون وهو ابن أربع عشرة سنة، وولي الوزارة للمهتدي بالله، ثم للمعتمد على الله. ونقم عليه الموفق بالله، فحبسه، فمات في حبسه. سير أعلام النبلاء: الذهبي. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣هـ ١٤/ ١٨.

(7) أبو الوزير: هو أحمد بن خالد كان زماماً على عمر بن فرج الرّخَّجي في ديوان النفقات في حياة الواثق، وهو أحد الكتاب الذين نكبهم هذا الخليفة وصادر أموالهم. وقد استكتبه الخليفة المتوكل بعد ذلك في سنة ٢٣٣هـ. سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٦٤.

والشاعر يشير هنا إلى قصة السقب– أي ولد الناقة التي طلبها قوم ثمود من نبيهم صالح.

ولأبي الفتح كشاجم في صديق له ولي بريد مصر:

صرت يا عامل البريد مقيتا   وقديماً إليّ كنت حبيبا
كنت تستثقل الرقيب، فقد صر   ت علينا، بما وليت، رقيبا
أفلا يعجب الأنام لشخص   صار ذئباً، وكان ظبياً ربيبا[٢]

وله أيضاً:

لاَ حَبَّذَا البَرِيْدُ مِنْ وَلاَيَهْ   لَيْسَتْ لِمَنْ يَعْلَمُهُ رِعَايَهْ
هِمَّتُهُ الإِغْرَاءُ وَالسِّعَايَهْ   وَكَذِبُ جَاوَزَ بِهِ الغَايَهْ

وأورد الصولي في أدب الكاتب[٣]: أن ابن شاهك[٤] كان عدواً لأحمد بن أبي أمية[٥]، وكان فيه تأنيث فولاه إسحاق بن إبراهيم عملاً، فقال ابن أبي أمية يخاطب إسحاق ويذكر ابنه بابن شاهك، وجعل الذي رماه به كالفرانق، وما معه كالخريطة فقال له:

(قل) للأمير أدام الله نعمته   قولاً له عند أهل الرأي تحصيل
إن ابن شاهك قد وليته عملاً   أضحى وحقك عنه وهو مشغول
بسكة أحدثت ليست بشارعة   تفضي إلى عرصة في جوفها ميل
يرى فرانقها في الركض مندفعاً   ينوي خريطته والبغل مشكو

(1) القاضي محمد بن أحمد بن أبي دؤاد أبو الوليد الأيادي القاضي ولي محمد لأمير المؤمنين المتوكل القضاء بعد أن فلج أبوه ومات في حياة أبيه، وكانت وفاته ببغداد في ذي الحجة سنة تسع وثلاثين ومائتين ومات أبوه بعده بعشرين يوما، الوافي بالوفيات ١/ ١٦٥- ١٦٦.

(2) تحسين القبيح ١/ ٥٦.

(3) أدب الكاتب : أبوبكر بن محمد بن يحيى الصولي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت. ص١٩٤.

(4) من موالي المنصور، تولى القضاء، وكان والياً على الشام، وولي الجسرين ببغداد، وكان ممن غلب على الأمين مع محمد بن عيسى بن نَهيك وسليمان بن أبي جعفر المنصور. تاريخ الطبري ٥١٩/٧، ٥٢٣.

(5) أحمد بن أمية أبو العباس الكاتب، ذكره المرزباني فقال: أهل بيت الكتابة والغزل والظرف، الوافي بالوفيات ٣٠٨/٢.

يقول: أبو هفان[1] ليس في الأرضِ هجاءٌ أشرف ولا أظرف من هذا الهجاء.

وقد هجا عبد الرحمن بن عائشة[2] إبراهيم صاحب البريد بنحو معنى أبي أمية فقال:

ألا قــولا لميمون مــقالاً   يدبره الحكيم بحســن عقله
أما ينهاك شيبك عــن كتاب   شغلت بخــرجه عنا ودخله
يجيء به الفــرانق مستعداً   بغــير يــد فيأخــذه برجله

ولدعبل، يهجو الحسن بن وهب، لما ولي البريد بنحو قول ابن أبي أمية:

ألا أبلغ أمير المــؤمنين محــمداً   رسالة نله عــن جانبيه شــاحط
بأن ابن وهب حين يشحج شاحج   يمر على القرطاس أقلام غالط[3]

وذكر الجاحظ في رسائله أخباراً وإن كانت تحمل في طياتها سبب زوال ملك بني مروان إلا إنها تصبُّ وبالدرجة الأولي في ذم صاحب البريد منها: أنه لما بلغ المأمون اختلاطٌ من حال البريد، وجّه ثُمامة بن أشرس[4]، ليتعرَّف له ذلك. فلما رجع إليه وسأله، قال: يا أمير المؤمنين، تركت بغلاً على مِعْلف كذا وكذا وهو يقرأ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾[5]، ومررت بسكّة أُخرى، فإذا بغلٌ قد

(1) عبد الله بن أحمد بن حرب أبو هفان الخرنوبي الشاعر البصري نزيل بغداد، مات سنة سبع وخمسين ومائتين. اللباب في تهذيب الأنساب: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري، دار صادر بيروت، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م. ٣/ ٢٤٩.

(2) عبد الرحمن بن عبيد الله بن محمد بن حفص التيمي يعرف بابن عائشة من أهل البصرة كان متأدبا شاعرا وقدم بغداد فاتصل بأحمد بن أبي دؤاد القاضي، مات عبد الرحمن بن عائشة سنة سبع وعشرين ومائتين. تاريخ بغداد ١٠/ ٢٥٩.

(3) أدب الكاتب: الصولي ص١٩٥.

(4) ثمامة بن أشرس (٠٠٠ - ٢١٣ هـ / ٠٠٠ - ٨٢٨ م) ثمامة بن أشرس النميري، أبو معن: من كبار المعتزلة، وأحد الفصحاء البلغاء المقدمين، كان له اتصال بالرشيد، ثم بالمأمون. الأعلام: الزركلي ٢/ ١٠٠.

(5) هود الآية ٦.

عدا على رجل عليه طيْلسانٌ أخضر، يظنّه حُزْمة علف، فعدا الرجل وعدا خلفه البغل، فصحْت بالرجل: اطرح الطيلسان! فلما طرحه وقف البغل يشمّه.

ومررت بسكّة أخرى، وإذا على المعْلف بغلٌ، وإذا هو يغنّي:

ولقدْ أبيت علــى الطَّوى وأظلُّهُ   حتَّـــى أنال به كريم المأكلِ.

هكذا أصبحت نهاية ما طوّره الأمويون وما ورثه العباسيون قصصاً تروى في كتب الأدب مشبهين عمال البريد الذين امتازوا بالدقة والإتقان والسرعة في أعمالهم بالبغال التي يركبونها وهذا يدل على الحال الصعبة التي وصل إليها البريد في أواخر الدولة العباسية، فقد وُصِف عامل البريد بأنه بغل لا يفهم ومع ذلك يحفظ الشعر فأصبح كالذين قال الله فيهم: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ (1).

ومثل ما قال الشاعر(2):

زَوَامِلُ لِلأشعارِ لا عِلْــمَ عِندَهُمْ   بجَيِّدِها إلّا كَعِلم الأَباعِــــــرِ

لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي البَعيرُ إذا غَــدا   بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا في الغَــــرَائِرِ

ومرد ذلك كله إلى التقلبات السياسية والأطماع الشخصية، هذان عنصران عصفا بالبريد وعماله وجعلا الأدباء وغيرهم يطلقون ألسنتهم بمثل ما مرّ في القصة آنفة الذكر.

هذا ولم أجد من الأشعار ما يدل على حبهم للبريد أو لصاحبه سوى أن كثيراً من العرب قد تسموا بالبريد من ذلك هاشم بن البريد(3)، وأطلقوا على الباب الغربي

---

(1) الجمعة الآية ٥

(2) الكامل في اللغة والأدب ٣/ ٩٣.

(3) هو هاشم بن سعيد بصري حدث عن كنانة مولى صفية بنت حيي روى عنه عبد الصمد بن عبد الوارث . الإكمال: علي بن هبة الله بن أبي نصر بن ماكولا، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١٤١١،١هـ. ٢٥١/١.

لجامع دمشق بباب البريد[1]، وعلى السوق المجاور له بسوق البريد، ونظم في جنتها الناظمون، وتشوّق شاعر إلى باب البريد فقال[2]:

تلاقت جفون ما تلاقى قصيرة ... وليل مشوق بالغرام طويل

شديد إلى باب البريد حنينه ... وليس إلى باب البريد سبيل

ديار فأما ماؤها فمصفق زلال ... وأما ظلها فظليل

نحلت وما قولي نحلت تعجبا ... هل الحب إلا لوعة ونحول

وعن جنّة باب البريد أحد منتزهات دمشق قال الشهاب فتيان بن علي بن فتيان الدمشقي الشاغوري[3] الأديب النحوي[4]:

يا حبذا جنّة باب البريد بها ... والحسن قد حشيت منه حواشيه

فالمرج فالنهر فالقصر المنيف على ... القصور بالشرف الأعلى فشانيه

كأن في رأس عليين ربوتها ... يجري بها كوثر سبحان مجريه

تلك المرابع لا رضوى وكاظمة ... ولا العقيق تواريه بواديه

الخاتمة

انحصرت موضوعات البريد في ثلاث هي: الخوف منه، ووصف لدابته، وذم له ولصاحبه، حيث لم أجد شاعراً واحداً من هذه العصور قد أفرد له قصيدة كاملة، مع العلم بأن هناك شعراء كباراً من أمثال أبي تمام قد تقلدوا منصب صاحب البريد، وسبب ذلك يرجع في تقديري إلى أن هذا النظام كان مصلحة حكومية خاصة، أي شأن حكومي لم

(1) تاريخ دمشق ٢/ ٣٨٢.

(2) معجم البلدان ١/ ٣٠٦.

(3) الشهاب الشاغوري (٥٣٣ – ٦١٥ هـ/ ١١٣٩ – ١٢١٨ م) فتيان بن علي الأسدي: مؤدب، شاعر. من أهل دمشق، نسبته إلى " الشاغور " من أحيائها. مولده في بانياس، ووفاته في دمشق. الأعلام ٥/ ١٣٧.

(4) معجم البلدان ٣/ ٣٧٠.

يكن للأفراد فيه نصيب، وأنه لم يكن محبوباً، لأن مهمته استخبارية قائمة على التجسس، الغرض منها حماية حكم السلطان، لذلك ليس عجباً عندما نسمع شاعراً يقول:

صرت يا عامل البريد مقيتا وقديماً إليّ كنت حبيبا

كنت تستثقل الرقيب ، فقد صرت علينا ، بما وليت رقيبا

أفلا يعجب الأنام لشخص صار ذئباً ، وكان ظبياً ربيبا

والمتتبع لهذا الموضوع يلاحظ أن هذا النظام مع دقته وانتشاره لم يولد أدباً بحجمه، شعراً كان أو نثراً، ولم يكن هنالك تطور لا في الألفاظ ولا المعاني ففي العصر الجاهلي نجد امرأ القيس يصف البريد الذي ركب عليه بقوله: (عَلى كُلِّ مَقْصُوص الذُّنَابَى) وفي العصر الأموي نجد الأخطل يقول: (بِكُلِّ أَشَقَّ مَقْصُوص الذُّنَابَى) والسبب في ذلك يرجع إلى أن تطور البريد لم يكن بتغير ما كان عليه سابقاً وإنما كان بتوسيعه ليشمل مناطق أخرى، وزيادة سرعته، وتعدد ما يحمله والتوسع في طرقه وبإدخال وسائل جديدة مع المحافظة على الموروث القديم.

وخلا الأدب تماماً من ذكر موضوعات تخص الحمام الزاجل، وذلك ربما لأنّه انتشر في وقت متأخر، أي في نهاية الدولة العباسية، حيث كان الناس منشغلين بمحاربة القرامطة، الذين كانوا أول من نظموه واستعملوه على نطاق واسع.

أوصي في ختام هذه الدراسة بمواصلة هذا الموضوع لاسيما بالكتابة عنه في العصر الحديث لأن البريد أصبح مصلحة للجميع، فبهذا ربما يكون قد أنتج أدباً واسعاً متنوعاً.